

قصة الدواب

ما قصة الدواب التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم :
إنها تسبح لله أكثر من تسبيح أصحابها ؟

السؤال :

الجواب : وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قومًا قد أوقفوا دوابهم ، وظلوا يتحدثون وهم يركبونها ، والدواب واقفة بهم ، قال لهم : أما تجعلونها تمشي بكم ، أما تدعونها وتحدثون ، لا تجعلوها كراسي تجلسون عليها ، إنها تسبح الله أكثر منكم . وهذا يعنى ألا يستذل الحيوان بجعله كرسيًا^(١) .

ومعلوم أن الكون كله بأجناس وجوده مسبح للحق سبحانه . . والذي يفى الله عليه ببعض فضله يسمع ذلك التسبيح ، ويفهم لغة ذلك التسبيح^(٢) .

(١) روى أحمد في المسند [٣/ ٤٤٠] عن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اركبوا هذه الدواب مسلمة ولتدعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي » وقال الأرنؤوط : اسناده حسن وفي رواية [٣/ ٤٤١] « لا تتخذوا الدواب كراسي قرب مركوبة عليها هي أكثر ذكرا لله تعالى من راكبيها » .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ نَسُجُ لَهُ السُّجُودَ السَّجْدَ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا غِلَظًا عَفْوَا ۝١١٦ ﴾ [الإسراء] .

قال القرطبي في التفسير ، قوله تعالى : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن » أعاد على السماوات والأرض ضمير من بعقل ، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله : ﴿ وَمَنْ فِيهَا ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها في قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ ﴾ . واختلف في هذا العموم ، هل هو مخصص أم لا ، فقالت فرقة : ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل محدث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر . وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة وكل شيء على العموم يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : ﴿ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ تَفْقَهُونَ ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء . وقالت فرقة : قوله : ﴿ زَيْنَ شَيْءٍ ﴾ عموم ، ومعناه الخصوص في كل حي ونام ، وليس ذلك في الجمادات .

ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والاسطوان لا يسبح .
وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان : أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال : قد كان يسبح مرة ؛ يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبح ، وأما الآن فقد صار خوانا مدهونا .

قلت : ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول » قال : فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال : « لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » . فقوله عليه الصلاة والسلام . « ما لم ييبسا » إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان ، فإذا يبسا صارا جمادا . والله اعلم .

وفي مسند أبي داود الطيالسي : فوضع على أحدهما نصفاً وعلى الآخر نصفاً وقال : « لعله أن يهون عليهما العذاب ما دام فيهما من بلوتهما شيء » .

قال علماؤنا : ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور ، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن . وقد بينا هذا المعنى في كتاب التذكرة بيانا شافيا ، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يهدى إليه . والحمد لله على ذلك .

وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك ؛ فإن كل شيء من الجماد وغيره يسبح .

قلت : ويستدل لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ وَالْعِشْيَ وَالْإِشْرَاقَ ﴾ ﴿ [ص] ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْهَا لَأَنبَاءٌ يَرَّبُّ مِنْ حَشَى اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٤] - على قول مجاهد - .

وقوله : ﴿ وَتَجَرَّ لَكُمْ هَذَا ﴾ ﴿ أَنْ مَضَى إِلَيْنِ وَلَكَا ﴾ ﴿ [مريم : ٩٠] .

وذكر ابن المبارك في « دقائقه » أخبرنا مسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن الجبل يقول للجبل : يا فلان ، هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل ؟ فإن قال نعم سر به . ثم قرأ عبد الله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ الآية . قال : أفترأى يسمعن الزور ولا يسمعن الخير .

وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضا . يا جاره ؛ هل مر بك اليوم عبد فضلى لله أو ذكر الله عليك ؟ فمن قائلة لا ، ومن قائلة نعم ، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » . رواه ابن ماجه في سننه ، ومالك =



= في موطنه من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه .
 وخرج البخارى عن عبد الله رضى الله عنه قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .
 وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله صلى
 الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه .
 وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : « إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » .
 قيل : إنه الحجر الأسود ، والله اعلم .
 الأخبار في هذا المعنى كثيرة ، وقد أتينا على جملة منها في اللمع اللؤلئية في شرح
 العشرينيات النبوية للفاداري رحمه الله ، وخبر الجذع أيضا مشهور في هذا الباب خرجته
 البخارى في موضع من كتابه .
 وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات ، ولا استحالة في شيء من ذلك ؛
 فكل شيء يسبح للعموم . وكذا قال النخعي وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح
 فيه حتى صرير الباب . واحتجوا بالأخبار التي ذكرنا .
 وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك
 منها . وقال الشاعر :

تلقى بتسبيحه من حيث ما انصرفت وتستقر حشا الرائي بترعاد

أي يقول من رآها : سبحان خالقها . فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك لو
 كان ذلك التسبيح دلالة فأي تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة
 والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل
 شيء فالقول به أولى . والله اعلم .

وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخلف ﴿ تَنْفَهُوتَ ﴾ بالياء
 لتأنيث الفاعل . الباكون بالياء ، واختاره أبو عبيد ، قال : للحائل بين الفعل والتأنيث .
 ﴿ إِنَّكَ كَانَتْ حَيَاتًا ﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا . ﴿ تَقُولُ ﴾ للمؤمنين في الآخرة .

تكذيب الكفار بيوم البعث

السؤال :

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَتًا أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فلماذا جاءت كلمة « رفات » بعد كلمة « عظام » رغم أن الرفات هو أصغر من العظام فما تفسيركم لذلك ؟

الجواب : إنهم كفروا بآيات القرآن التي تحمل منهج الله إلى الناس ونتيجة كفرهم هذا أنهم كذبوا بالبعث : ﴿ وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَتًا أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٤٩] .

فهذا تكذيب بالخالق ، وتكذيب بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بلغ ، وتكذيب بآيات الأحكام .

لأن الذى جاءهم بآيات الأحكام أخبرهم أنهم سيبعثون ليحاسبوا على ما قدموا من عمل سواء كان خيراً أم شراً . ومن باطن هذا التكذيب جاء تكذيبهم بالبعث .

وجاءت كلمة رفات بعد كلمة عظام لأن الرفات هي الفتات ، والفتات هي أثر الشيء الجاف إذا تكسر . وهذا ما يحدث للإنسان بعد موته ، حيث يتبخر الماء ، وبعد ذلك تتحلل عناصره ولا يبقى منه إلا العظام ، ومع طول الزمن تتفتت العظام أى : تصير رفاتاً . فالكفار أنكروا البعث وقالوا : بعد أن نصير عظاماً ورفاتاً كيف نبعث ؟!

فوقفوا فى مسألة البعث ، لأن الذى عنده لد فى الإيمان إذا قيل له : إنك ستبعث فمن مصلحة آماله وتكذيب نفسه أن يقول : هذا لا يمكن أن يحدث ، وحتى لو حدث سنكون سادة كما نحن فى الدنيا سادة . لأن القوم فهموا أن كل الحياة هي فى ظاهر حياتهم ، فلا يفهمون الحياة إلا فى الحركة والحس ، وهذه العملية الدالة على الحياة فى الدنيا . ولم يفهموا أن كل شىء له حياة تناسبه .

فنحن مثلاً نرى العلماء الذين يحدثوننا عن الجيولوجيا والأحجار وأعمارها وكيف تتحول وتختلف كلما مر عليها الوقت ، نجد أن هذه الأحجار تتغير بمرور الوقت وتتحول إلى أنواع جديدة ، هذا التغير معناه أن فيها حياة وتفاعلاً ، ولكننا نفهم الحياة على أنها حياتنا نحن التي نحياها . ولكن لكل شيء حياة تناسبه .

إذن . . . فما دامت هناك حياة للذرات وللعظام وإن كانت فتاتاً . فنقول لهؤلاء المنكرين للبعث إذا كانت العظام والرفات هي أثر للإنسان الذي كانت فيه الحياة قبل ذلك ، وإذا كان الله خلقكم من لا شيء أولاً ، فإذا كانت هناك رفات فإن إعادتها إلى الحياة أيسر وأسهل . قال تعالى : ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : ١٥] .

ويقول سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ﴾ [ق : ٤]

فإن الله سبحانه وتعالى يعلم أن كل واحد منا مكون من كذا ذرة وكذا عنصر ، وأين ذهبت ذراته بعد موته ، وهو قادر على جمعها بقدرة : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ولم يخبرنا سبحانه أنه يعلم ما تنقص الأرض منهم فقط بل أخبرنا أن عنده كتاباً حفيظاً^(١) .

(١) قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم] .

قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أما بدء خلقه فبعلقه في الرحم قبل ولادته ، وأما إعادته فأحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث ، فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلاً على ما يخفى من إعادته ؛ استدلالاً بالشاهد على الغائب ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ . وقرأ ابن مسعود وابن عمر : ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ من أبداً يبدئ ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ هُمُ يُبْدِئُونَ وَيُعِيدُونَ ﴾ [البروج] . ودليل قراءة العامة قوله سبحانه : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف] .

و ﴿ أَهْوَنُ ﴾ بمعنى هين ؛ أى : فعل الإعادة هين عليه ؛ قاله الربيع بن خثيم والحسن . فأهون بمعنى هين ؛ لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء . قال أبو عبيدة : ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء] وبقوله : ﴿ وَلَا يَتُودُّهُمْ حِفْظُهُمْ ﴾ [البقرة] .

= والعرب تحمل أفعال على فاعل ، ومنه قول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
أي دعائمه عزيزة طويلة . وقال آخر :
لعمرك ما أدري وإنني لأوجل
أراد : إنني لوجل . وأنشد أبو عبيدة أيضاً :
إنى لأمنحك الصدود وإنني
قسماً إليك مع الصدود لأميل
أراد لمائل . وأنشد أحمد بن يحيى :
تمنى رجال أن أموت وإن أمت
فتلك سبيل لست فيها بأوحد
أراد بواحد . وقال آخر :

لعمرك إن الزبرقان لباذل لمعروفه عند السنين وأفضل
أي وفاضل . ومنه قولهم : الله أكبر ؛ إنما معناه الله الكبير .

وروى معمر عن قتادة قال : فى قراءة عبد الله بن مسعود : « وهو عليه هين » .
وقال مجاهد وعكرمة والضحاك : إن المعنى أن الإعادة أهون عليه - أي على الله - من
البداية ؛ أي أسير ، وإن كان جميعه على الله تعالى هيناً ؛ وقاله ابن عباس .
وجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده ؛ يقول : إعادة الشيء على الخلائق أهون من
ابتدائه فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من
الإنشاء . وقيل : الضمير فى ﴿ عَلَيْهِ ﴾ للمخلوقين ؛ أى : وهو أهون عليه ، أي على
الخلق ، يصاح بهم صيحة واحدة فيقوموا ، ويقال لهم : كونوا فيكونون ؛ فذلك أهون
عليهم من أن يكونوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أجنة ثم أطفالاً ثم غلماناً ثم شباناً ثم رجالاً
أو نساء . وقاله ابن عباس وقطرب . وقيل أهون أسهل ؛ قال :

وهان على أسماء أن شطت النوى يحسن إليها واله ويتوق

أي سهل عليها ، وقال الربيع ابن خثيم فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ قال : ما
شئ على الله بعزير . عكرمة : تعجب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية .
﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ أى : ما أراده جل وعز كان .

وقال الخليل : المثل الصفة ؛ أى : وله الوصف الأعلى ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كما قال :
﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد : ٣٥] . أي صفتها . وقد مضى الكلام فى ذلك .

وعن مجاهد : ﴿ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ قول لا إله إلا الله ؛ ومعناه : أي الذى له الوصف
الأعلى ، أي الأرفع الذى هو الوصف بالوحدانية . وكذا قال قتادة : إن المثل الأعلى
شهادة أن لا إله إلا الله ؛ ويعضده قوله تعالى : ﴿ صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ وقال
الزجاج : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ قد ضربه لكم
مثلاً فيما يصعب ويسهل ؛ يريد التفسير الأول .

وقال ابن عباس : أي ليس كمثله شئ ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

الاستشفاء بالقرآن

ورد في القرآن الكريم أنه شفاء ورحمة للمؤمنين .. فهل المراد هو شفاء المرض المعنوى ؟

السؤال :

الجواب : يجب ألا تُضَيَّقَ واسعاً ؛ ولما لا نقول أيضاً هو الشفاء العضوى بآيات الله ؟

إن الجهاز البشرى ما زال مجهولاً للناس ، لا يعرفون منه إلا الأجهزة الواضحة الظاهرة ، الجهاز الهضمى ، الجهاز التنفسى ، البولى ، التناسلى ، ثم اكتشفوا بعد ذلك الجهاز السمبثاوى .. إلخ .

وهناك أجهزة لا حصر لها ولا عدد ، ولعل غدة بسيطة لا تتجاوز حبة العدس تدير عملية فى الجسم لا نعلم عنها شيئاً .

وكل جهاز من هذه الأجهزة يؤدي دوره ما دام فى حالة اعتدال ، بين الانقباض والانبساط ، فإذا انقبض أكثر مما هو محدد له ، أو انبسط أكثر مما هو محدد له خرج عن مهمته .

والله سبحانه وتعالى يضرب لنا المثل بقوله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] .

أى : التزموا حد الاعتدال .. فالإنسان الذى لا تؤثر فيه الأحداث المفرحة أو المحزنة يظل جهازه سليماً مستقيماً ، على هيئة الاعتدال ، وتظل التصرفات الصادرة عن هذا الجهاز سليمة .

لذلك أقول : لا تُضَيِّقُوا واسعاً .. فقلوه تعالى : ﴿ **شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

يمكن أن يشمل كل مرض حسى ، وكل مرض معنوى .
لأن ما نسميه بالأمراض النفسية هو ظواهر لخلل فى أجهزة عضوية لم نكتشفها بعد .. ولم نعرف خباياها .

فكل مرض لا نعرف أصله العضوى ، أو جهازه فى الجسم البشرى ، نسميه مرضاً نفسياً . فإذا اكتشفنا أساسه ، كما اكتشفنا مثلاً الغدة النخامية ، أو الغدة الدرقية ، أو الجهاز الليمفاوى حين لا يؤدي دوره ، عرفنا أنه مرض له أساس عضوى .

وقد سئل الإمام فخر الدين الرازى : هل تبرأون بالكلمة ؟ فانتهر الرازى الفرصة ، وقذف سائله بكلمة شديدة ، فغضب الرجل وارتجف وركبته الحمى ، فقال له الرازى : أمرضناك بكلمة ؟ فالذى يمرض بكلمة يشفى بكلمة .. والشفاء هو : أن تعيد كل جهاز من أجهزة الإنسان إلى حد اعتداله .

إذن .. فأى خلل فى الجهاز الإنسانى سببه عضوى لأن الله تعالى جعل للأعضاء صيانة ، وصيانتها فى القيم .

سيأتى يوم يكتشفون فيه أن الذى يعتدي بعينه لرؤية ما حرم الله سيصيبه شحاء ، لأن من صيانة جهاز الإبصار : ألا تنظر به إلى المحرمات .. وهكذا كل عضو ، اليد حين تسرق .. واللسان حين لا ينطق بخير .. إلخ .

فالقيم تقيد الحركة .. وتقيد سلامة العضو .. فإذا لم يتقيد انفلت .. فيقال مثلاً : « انفلت عيار الشيء » . أى لم يسر على القيم .

ولذلك الرجل المستقيم من هيئته أن جميع أعضائه منضبطة .. والشرس يبدو فيه غير ذلك .. وهذا معنى العلاج بالقرآن . إذن .. فيستطيع أن يعيش بلا خوف ولا حزن ولا مرض ؟^(١) .

(١) ورد فى الخبر عن أمير المؤمنين على رضى الله تعالى عنه : خير الدواء القرآن . أى : خير الرقية ما كان بشيء من القرآن : ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهَرًا نِعْمًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] . فهو دواء للقلوب والأبدان والأرواح وإذا كان لبعض الكلام خواص ومنافع فما بالك بكلام رب العالمين الذى فضله كفضل الله على خلقه وفيه آيات مخصوصة يعرفها الخواص لإزالة الأمراض والأعراض وقد ألف القوم فى ذلك تأليف وممن اعتنى بإفراد ذلك الغزالي والبوني وغيرهما .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَنُزِّلَ ﴾ قرأ الجمهور بالنون . وقرأ مجاهد « وينزل » بالياء خفيفة ، ورواه المروزي عن حفص . و ﴿ مِن ﴾ لا ابتداء الغاية ، ويصح أن تكون لبيان الجنس ؛ كأنه قال : ونزل ما فيه شفاء من القرآن . وفي الخبر « من لم يستشف بالقرآن فلا شفاؤه الله » . وأنكر بعض المتأولين أن تكون ﴿ مِن ﴾ للتبعية ؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه . ابن عطية : وليس يلزمه هذا ، بل يصح أن تكون للتبعية بحسب أن إنزاله إنما هو مبعض ، فكأنه قال : ونزل من القرآن شيئاً شفاء ؛ ما فيه كله شفاء . وقيل : شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تفريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضل به تعالى من الثواب في تلاوته ؛ كما روى الترمذي عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف » . قال هذا حديث حسن صحيح غريب ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم .

قال قتادة : ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ، ثم قرأ ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية . ونظير هذه الآية قوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَنِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذِنِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَنِفَاءً ﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع . ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذِنِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أى : صمم عن سماع القرآن . ولهذا تواصلوا باللغو فيه . وقال ابن كثير فى التفسير : يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يذهب ما فى القلوب من أمراض من شك ونفاق ، وشرك وزيع وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله . وهو أيضاً رحمة ، يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدق به ، واتبعه ، فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك ؛ فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدا وكفرا .

وقال القرطبي فى تأويل قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّكْرِ ﴾ [الشعراء] .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى : يرشدني إلى الدين . ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : يرزقنى . ودخول ﴿ هُوَ ﴾ تنبيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقي كما تقول : زيد هو الذى فعل كذا ؛ أى لم يفعله غيره ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ قال : ﴿ مَرِضْتُ ﴾ رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عز وجل جميعاً . ونظيره قول فتى موسى : ﴿ وَمَا أَصْبَحُ إِلَّا أَنسَينُ ﴾ [الكهف : ٦٣] .



= ﴿وَالَّذِي يُبَيِّنُ ثَمَّ يَحْيِي﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب ؛ فبين أن الله هو الذي يميت ويحيى . وكله بغير ياء : ﴿يَهْدِي فِي لِسَانٍ بِشَفِيرَةٍ﴾ لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كلها . وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء ؛ لأن الياء اسم وإنما دخلت النون لعله . فإن قيل : هذه صفة لجميع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره ؟ قيل : إنما ذكرها احتجاجا على وجوب الطاعة ؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها ؛ وهذا إلزام صحيح .

قلت : وتجاوز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم .

فقال : ﴿وَالَّذِي هُوَ يُبَيِّنُ وَيَنفِي﴾ أى : يطعمني لذة الإيمان ويسقني حلاوة القبول ولهم في قوله : ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ نَفْسِي أَشْفِي﴾ وجهان :

أحدهما : إذا مرضت بمخالفتي شفاني برحمته .

الثاني : إذا مرضت بمقاساة الخلق ، شفاني بمشاهدة الحق .

وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة .

وتأولوا قوله : ﴿وَالَّذِي يُبَيِّنُ ثَمَّ يَحْيِي﴾ على ثلاثة أوجه :

فالذي يميتني بالمعاصي يحييني بالطاعات .

الثاني : يميتني بالخوف ويحييني بالرجاء .

الثالث : يميتني بالطمع ويحييني بالقناعة .

وقول رابع : يميتني بالعدل ويحييني بالفضل .

وقول خامس : يميتني بالفراق ويحييني بالتلاق .

وقول سادس : يميتني بالجهل ويحييني بالعقل ؛ إلى غير ذلك مما ليس بشيء منه مراد من الآية ؛ فإن هذه التأويلات الغامضة ، والأمور الباطنة ، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق ، وأما من كان في عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة ، وترك الأمور الظاهرة ؟ هذا محال . والله أعلم .

أصحاب الكهف

ما قصة أهل الكهف ؟ وما الدروس المستفادة من تلك القصة حتى أننا نجد أن القرآن الكريم أتى بسورة كاملة باسم سورة الكهف ؟

السؤال :

الجواب : إن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلاً لموكب إيماني في سورة الكهف . . وصورة الموكب الإيماني هنا تمثل عصرًا انتشر فيه الكفر . وقلة مؤمنة لا تدري ماذا تفعل أمام بطش الكافرين . . وهنا يعطينا الله المثل ليكمل بذلك موكبًا من مواكب الإيمان .

وقبل أن نبدأ الحديث أحب أن أقول . . إن كل الأمثال التي تضرب في القرآن . . قد أخفى الله سبحانه وتعالى حقيقة أبطالها . . لأنها تحدث وتكرر في كل عصر . . والخلاف الذي يحدث حول من هم أبطال هذا المثل أو هذه القصة أو في أي عصر حدثت . . هو خلاف لا يفيد القضية . . فالمفروض - بدلاً من أن يجرنا هذا الخلاف إلى متاهات - أن نلتفت إلى الحكمة التي أرادها الله سبحانه وتعالى وتندبر فيها . . فذلك هو المقصود . . وهو الأساس .

وقصة أهل الكهف . . هي قصة فتية آمنوا بربهم . . جاء ذكرهم في القرآن على النحو التالي ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ١٠١ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ١٠٢ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١٠٣ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَمْ يَشُوْا أَمَدًا ١٠٤ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ١٠٥ ﴾ [الكهف] .

هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى . . إنما هم يمثلون المنهج الإيماني واستمراريته . . الله قد ضرب لنا المثل في أصحاب القرية

فى منهج إيمانى .. يجادل ويواجه .. وهذا هو أساس المنهج الإيمانى .. ولكن الله فى هذا المثل فى سورة الكهف .. أخبر بأنهم لم يواجهوا ولم يستمروا .. بل هربوا بدينهم .. أو فروا بدينهم بعيداً عن الكفار .. فهل فى هذا تناقض .. كيف يبقى الإنسان مرة يجادل .. ثم يفر بدينه مرة أخرى !

نقول لمن يدعى ذلك أنك لم تفهم الحكمة .. فالحكمة فى المثلىين واحدة وإن اختلف الأسلوب .. فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبقى المنهج الإيمانى مواجهاً الكافرين .. مجادلاً لهم حتى آخر لحظة .. ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد من المنهج الإيمانى إذا واجه قوة ستقضى عليه .. أن يستسلم ويتركها لتقضى عليه إنما عليه أن يفر بدينه إلى مكان آخر .. ثم بعد ذلك يعود مرة أخرى .. بعد أن يكون قد قوى واستطاع أن يواجه .. يعود مرة أخرى قويا إلى المواجهة .. وهو سبحانه لا يريد ممن يدعون لدينه أن يهربوا من المجتمع .. أو أن يعتزلوا .. بل لابد أن يبقوا .. وأن يقولوا كلمة الحق .. وأن تظل الدعوة مستمرة . ولذلك إذا قرأنا قصة أهل الكهف بعناية .. نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدد شرطين لا ثالث لهما .. ليفر الإنسان بدينه إلى مكان آخر ويبدأ الدعوة من جديد الشرطان هما : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعَبِّدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا ﴾ [الكهف : ٢٠] .

إذن .. فالأساس هو ما حدده القرآن الكريم فى هذه السورة .. فقد كان الفتية المؤمنون إذا بقوا .. فإنهم سيواجهون أحد أمرين .. إما أن يرحمهم علناً أمام الناس .. ويقتلوهم على رؤوس الأشهاد .. وفى هذه الحالة ينتهى موكب الإيمان من هذه البلدة إلى فترة محدودة .. وإما أن يجبروهم علناً على أن يعودوا إلى عبادة الأصنام .. وفى هذه الحالة .. ربما يكون هناك عدد من المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم .. فيشهدون هؤلاء الفتية وقد ارتدوا عن الإيمان فيفتنون بهم ويرتدوا هم أيضاً .. ويتوقف موكب الإيمان فى هذه البلدة إلى حين .

إذن .. فالأساس هنا هو استمرارية موكب الإيمان أو المحافظة على

هذه الاستمرارية ، هذا بالنسبة لمن يدعون إلى تطبيق المنهج . . أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى ، فالله قادر أن ينصر دينه وكلمته بما شاء وكما شاء . . وهو سبحانه ليس محتاجاً إلى أحد ، إنما الأساس هو أن الهجرة أو الفرار بالدين . . لا يكون إلا لهذين السببين اللذين حددهما الله . . وأن بقاء الدعاة في المجتمع ، ما داموا غير مهددين بالقتل . . أو بالإكراه على الكفر . . أقول إن بقاءهم في هذه الحالة واجب إيماني . . وأنهم لابد أن يبقوا ويظلوا يؤدون واجبهم كدعاة للحق .

هؤلاء الفتية وجدوا أن بقاءهم في المجتمع الكافر سيعرضهم لأحد شيئين . . إما أن يقتلوا ويحرم المنهج ممن يدعون إليه . . وفي هذه الحالة فإن قتلهم لا يفيد المنهج . . لأن المنهج محتاج لموكب إيماني . . وإما أن يكرهوا على الكفر فيصبحوا فتنة للذين آمنوا . . ودعوة إلى الكفر والإلحاد . . وفي هذه الحالة أيضاً يحرم المنهج الإيماني من حاملين له ومؤمنين به ودعاة له . . وفي هذه الحالة لابد أن يفروا إلى مكان ليعودوا مرة أخرى وهم أكثر قوة .

وكانت أول مرحلة لهؤلاء الفتية هي أن يلتجئوا إلى الكهف حتى يتدبروا أمرهم ، ولذلك فهم لم يذهبوا إلى الكهف ليبقوا هناك بقية حياتهم ، أو لكي يناموا أو لكي يعتزلوا المجتمع ويعيشوا في مجتمعهم الخاص ، وإنما الكهف وسيلة للاختفاء نهائياً . . ربما ليكملوا رحلتهم ليلاً . . أو وسيلة للاختفاء فترة قصيرة حتى يهاجروا من هذا البلد بعد أن تهدأ العيون التي تتبعهم ، والتي تريد أن ترجمهم أو ترغمهم على الكفر . . فلما دخلوا الكهف ألقى الله سبحانه وتعالى عليهم النوم . . ولم يكن هذا مقصوداً منهم . . بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي أراده لحكمة . . ولكن التجاءهم للكهف كان المقصود به منهم إبقاء الخميرة الإيمانية . . أو خميرة منهج الإيمان . . ليذهبوا بها إلى مكان آخر يمكن أن تختمر فيه وتنتشر . . لذلك لابد للمؤمن أن يحافظ على حياته . . لأن حياته هي الخميرة لمنهج الإيمان . . وحتى يظل المنهج الإيماني . . وفرارهم كان من أجل استبقاء حمل المنهج . . وليفروا إلى مكان ينشرون فيه الدعوة .

وتمضى الآية الكريمة : ﴿ وَإِذْ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴾ [الكهف : ١٦] .

وهنا إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى الرحمة التى تصيب العبد المؤمن ، الذى يُضْطَهِد بسبب إيمانه ودينه ، والمعروف أن الكهف مكان ضيق لا يصلح للإقامة إلا فترة قصيرة ، فهو عادة يكون سيئ التهوية وغير صالح للحياة .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد حفظ لهم الحياة فى هذا الكهف الضيق سنوات طويلة وهذه إشارة إلى أن ذلك الذى يسلك مسلك الإيمان .. قد يجعل هذا المسلك حياته الدنيوية ضيقة صعبة ، وقد يسلبه ميزات كثيرة من التى يتمتع بها الناس ، ويجعله يعانى .. وهنا تتدارك رحمة الله عبده المؤمن .. إذ يجعل الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الضيقة حياة ميسرة ، ويذهب الضيق الذى أوجده الكفار فى حياة الإنسان المؤمن ، بأن ينشر الله من رحمته على هذه الحياة ، ما يجعل من الضيق فرجا ، ومن العسر يسرا ، ومن الحياة المحدودة جدا حياة واسعة ، ويهيئ الله برحمته مخرجا بالنسبة للخطوات القادمة .

خرج الفتية إلى الكهف .. وفى هذا المكان الضيق الذى - كما قلنا - لا يصلح للحياة لفترة طويلة .. جعل الله سبحانه وتعالى برحمته هذا المكان يصلح لهم لما قالوا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ١٠] .

إذن .. فهم رفعوا الأمر من قدراتهم هم عندما فشلوا فى إقناع قومهم بعبادة الله وترك الأصنام التى يعبدونها .. وعندما أحسوا بالتهديد بالرجم أو بالإكراه على الكفر .. رفعوا الأمر إلى الله فقالوا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ قال تعالى : ﴿ فَفَضَّرْنَا عَلَيْهِمْ إِذْ أُنْذِرَهُمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف : ١١] .

والله يريد أن يلفتنا إلى أن الصلة التى تؤرق الإنسان فى نومه .. أو تصله بالدنيا فى كل الأوقات ، هى : الأذن ، فكل الحواس تنام ما عدا

الأذن . . ذلك أنك إذا جثت إلى إنسان نائم وقربت أصبعك من عينه حتى تكاد تلمسها فإنه لا يحس ولا يستيقظ ، وإذا وضعت يدك على يده قد لا يستيقظ إذا كان ينام نومًا عميقًا ، وإذا أطلقت رائحة غريبة فى حجرة فلا يحس بها ولا يستيقظ ، حتى إذا أطلقت غازًا سامًا ، فقد يستنشقه ويموت وهو نائم من دون أن يستيقظ .

ولكنك إذا أحدثت صوتًا عاليًا بجانب أذنه باستخدام أية آلة تحدث صوتًا عاليًا . . أو باستخدام كفيك تصفق بهما بجانب أذنه . . أو بالنداء عليه بصوت عال ، فإنه يهيب من نومه مذعورًا . بل إن الأذن هى أول حاسة تعمل فى جسم الإنسان عند ولادته .

فالطفل حديث الولادة قد تمضى عليه عدة أيام قبل أن يستطيع أن يستخدم حاسة البصر استخدامًا سليمًا . . ولكن حاسة السمع تعمل من أول لحظة فيزعجه الصوت العالى . . والأذن هى أداة الاستدعاء عند البعث .

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا كيف نام هؤلاء الفتية تلك السنوات الطويلة بدون أن يحسوا . . بأن ضرب الله على آذانهم . . فأصبح النهار بلا ضجيج كالليل فى سكونه تمامًا . . وحتى إذا وصل أعداؤهم إلى مدخل الكهف وتحدثوا بصوت عال . . فإن ذلك لن يزعجهم ولن يجعلهم يحسون الخطر . . لأنهم لو شعروا ربما تصرفوا تصرفًا يكشفهم ويعرضهم للإيذاء الأعداء . . ولذلك كان الضرب على آذانهم حتى يرقدوا فى سلام تام . . تمامًا كما ينام الإنسان فى جوف الليل . . حين تهدأ الحركة تمامًا .

ووفر الله لهم سبحانه وتعالى أسباب الحياة الكونية . . فجعل الشمس تدخل إلى الكهف . . بدون أن تصيب أشعتها أجسادهم فتوقظهم حرارتها وشاءت قدرته أن يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . . ليحفظ أجسادهم من أمراض الرقدة الطويلة . . ومن أن تأكلها الأرض .

ثم جاءت الحكمة فى البعث بعد فترة طويلة من النوم : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا

فَلْيَأْتِكُمْ رَزْقُ مِنْهُ وَلِيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ [الكهف : ١٩] .

من الواضح هنا أن الفتية المؤمنين قد فقدوا عنصر الزمن . . وعندما أفاقوا من نومهم بعد هذه السنوات الطويلة . . لم يكن هناك شيء في الكهف قد تغير وإن كان كل ما في خارج الكهف قد تغير ولكنهم لم يشعروا به لأن عنصر الزمن لا يحس به الإنسان إلا بالمتغيرات ، بمعنى : أنك إذا جلست في حجرة وأقفلت كل نوافذها . . وجعلتها ظلاماً ليس فيها أي حركة ولا أي أحداث تتم ، ولا صلة لك بالعالم الخارجى ، فأنت لا ترى الشمس حين تشرق أو تغرب ، وليس هناك ساعة تدل على الزمن ، ولا من يأتيك فإنك تفقد القدرة على الصلة بالزمن ، فالزمن أساسه التغير الذى يتم ، الشمس التى تشرق وتغرب ، مظاهر الكون التى تتأثر بالزمن ، القمر وحركة النجوم ، أي أساسه الحركة ، وما دام الفتية المؤمنون كانوا فى سكون تام ، نتيجة أن الله ضرب على آذانهم ، وما داموا قد قاموا فوجدوا الكهف كما هو لم يتغير فيه شيء ، فقد خيل إليهم أن الزمن لم يتغير ، وأنهم قد لبثوا يوماً أو بعض يوم ، ومن هنا فقد كانوا على حذرهم وخوفهم من الكفار ، ولذلك طلبوا إلى ذلك الذى يأتى إليهم بالطعام ألا يجعل أحداً يشعر بهم حتى لا يرحمهم أو يعيدوهم فى ملتهم .

وجعل الله الناس يعشرون عليهم . . فقال سبحانه : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا**

عَلَيْهِمْ لَعَلَّيْمْ لَيَعْلَمُوا أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴿٢١﴾ [الكهف : ٢١] .

وكان العشور عليهم له أكثر من حكمة ، أولاً : تحولت البلدة الكافرة التى كانت تعبد الأوثان إلى بلدة مؤمنة تعبد الله سبحانه وتعالى ، فى هذه السنوات الطوال التى مرت ، تغير الحال تماماً ، وانتهى موكب الكفر وزال عن البلدة وانتشر موكب الإيمان ، وكان فى ذلك حكمة : هي أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلمس هؤلاء الفتية كيف انتصر موكب الإيمان ، وأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينصر دينه ، وأن هذا الذى تبدل وتغير ، إنما تم وهم نائمون فى الكهف ، وذلك حتى يعلموا أن قدرة الله فوق كل قدرة ، وأنه إذا كان بعض الناس قد وفقهم الله إلى اختيار طريق الإيمان ، فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجزيهم الجنة . . ويريد أن يمتعهم

بقدراته فى الآخرة ، وليس ذلك لأن الله محتاج إلى خلقه لينشر دينه أو ليعلي كلمته ، ولكنه غنى بقدرته عن ذلك كله ، وذلك حتى نعرف جميعاً أننا إذا أخذنا طريق الإيمان ، فإن ذلك يكون رحمة من الله بنا ورضا من الله عنا ولا يكون لحاجة من الله إلينا .

وهكذا رأى الفتية المؤمنون وشهدوا موكب الإيمان ، وعرفوا أن هدى الله لهم كان من رحمته بهم ، ولم يكن عن حاجة لأحد .

وحكمة أخرى : أنهم شهدوا بأنفسهم البعث ورأوا كيف أنامهم الله هذه السنوات الطويلة ، فلم يحسوا إلا أنهم قد قضوا يوماً أو بعض يوم ، وأن الله سبحانه وتعالى الذى بعثهم فى هذه الدنيا قادر على أن يبعثهم فى الآخرة ، ويستيقنوا برؤيا اليقين بعد أن آمنوا إيمان اليقين ، بأن الساعة قادمة ، وبأن ما آمنوا به هو الحق ، ويعرفوا أنهم اختاروا طريق الحق ، وأنهم فازوا فوزاً عظيماً .

والحكمة الثالثة : ليستيقن هؤلاء الذين جاءوا ونشروا الإيمان بعد الكفر . بالبعث وبالأخرة . . . وبقدرة الله سبحانه وتعالى على بعثهم يوم القيامة ، ويتحول الإيمان بالغيب عندهم إلى رؤيا يقينية شهدوها بأعينهم .



معنى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

تتردد كلمة « إن شاء الله » على ألسنة الناس اتباعاً للقرآن بدون أن يفقهوها فقها يجعلها عبادة ذات نتيجة حاسمة تعمّر القلب بالإيمان فما فقه هذه الكلمة ؟

السؤال :

الجواب : الأمر بهذه الكلمة جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْى فَعَلْتُ ذَلِكَ غَدًا ﴾ ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف] فالكلام على الغد ، وما دام غداً فهو مستقبل ، وما دام الحديث عن المستقبل فأنت محجوز عنه بحاجز زمان المستقبل ، فلا تستطيع أن تحكم به ، ولا تقول أنا أفعل ذلك غداً إلا إن قلت مع ذلك : « إن شاء الله » . لماذا ؟ لأن الحدث بالنسبة لنا يحتاج إلى عناصر :

العنصر الأول : الفاعل .

العنصر الثانى : المفعول .

العنصر الثالث : زمان ومكان الحدث .

العنصر الرابع : السبب .

العنصر الخامس : القوة اللازمة لتنفيذ هذه الأشياء . هذه عناصر

الحدث عندنا .

إذن . . فلا يوجد حدث إلا بفاعل ، ومفعول يقع عليه الحدث . وزمان ومكان يحصل فيهما الحدث ، وقوة تستطيع أن تقوم بالحدث ، هذه هى العناصر . . فإذا قلت : أنا أذهب غداً إلى فلان لأكلمه فى كذا . فأى عنصر من هذه العناصر يملكه الإنسان ؟

إنه لا يملك نفسه فاعلاً أن يظل إلى غد ، ولا يملك المفعول الذى يقابله غداً أن يظل إلى غد ، ولا يمكن أن يتصرف فى الزمان والمكان أن يظل إلى غد ، وهب أن السبب موجود مع كل هذه العناصر : الفاعل

والمفعول والزمن والمكان وكل شيء ، هل أضمن أن يظل السبب فى اللقاء موجوداً ؟ لا . بل يمكن أن يتغير . وإذا وجد السبب هل ضمنت أن تظل لي القوة التى أنفذ بها هذا اللقاء ؟

إذن . . فأنا لا أملك عنصراً من عناصر الحدث ، ولذلك وجب أن أردّها إلى من يملكها ، فأقول : أنا أفعل غداً إن شاء الله كذا^(١) .

(١) جاء فى كتاب مقالات الإسلاميين للإمام أبو الحسن الأشعري قوله : وقالوا : إنه لا يكون فى الأرض من خير ولا شر إلا ما شاء الله ، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [التكوير : ٢٩] .

وكما قال المسلمون : ما شاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون . وقالوا : إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله ، أو يكون أحد يقدر أن يخرج عن علم الله ، أو أن يفعل شيئاً عليم الله أنه لا يفعله .

وفى كتاب الفصل فى الملل والنحل لابن حزم : قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فنص تعالى على أن لنا مشيئة إلا أنها لا تكون منا إلا أن يشاء الله كونها .

وجاء فى كتاب الحاوي فى الفتاوى للسيوطى :

مسألة من حلب : قد وقع فى تفسير القاضي البيضاوي موضع عسر فهمه فى تفسير قوله تعالى فى سورة الكهف ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ إِشَاقَىٰ إِي قَائِلٌ ذَلِكَ عَدَاؤُا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ ﴾ [الكهف] والاستثناء من النهي أى لا تقولن لأجل شيء تعزم عليه إني فاعله فيما يستقبل إلا بأن يشاء الله أى إلا ملتبسا بمشيئته قائلاً إن شاء الله أى إلا وقت أن يشاء الله أن يقوله بمعنى أن يأذن لك ولا يجوز تعليقه بفاعل لأن استثناء اقتران المشيئة بالفعل غير سديد واستثناء اعتراضها دونه لا يناسب النهي انتهى .

والمقصود بيان ذلك ، ويوضح ذلك قوله ولا يجوز تعليقه بفاعل لأن إلى آخره فإن هذا عسر فهمه على كثير من الناس .

الجواب : سبب ذلك وجازة العبارة واختصارها ، ويوضحه ما فى عبارة ابن الحاجب حيث قال : الوجه فيه أن يكون استثناء مفرغاً كقولك لا تجع إلا بإذن زيد ولا تخرج إلا عشية على أن يكون الأعم المحذوف حالاً أو مصدراً وحذفت الباء من بأن يشاء الله أى إلا بذكر المشيئة وقد علم أن ذكر المشيئة المستصحبة فى الأخبار عن الفعل المستقبل هي المشيئة المذكورة بحرف الشرط أو ما فى معناه كقولك لأفعلن إن شاء الله أو بمشيئة الله وما أشبهها ، قال : وأما ما ذكر أنه متصل بقوله إني فاعل ففاسد إذ يصير المعنى إني فاعل بكل حال إلا فى حال مشيئة الله فيصير المعنى النهي عن أن يقول إني فاعل إن شاء الله وهذا لا يقوله أحد . انتهى .

وقد وضح بهذا معنى قول القاضى : ولا يجوز تعليقه بفاعل لأن استثناء اقتران المشيئة بالفعل غير سديد ، وهذا التعليل من زوائده على الكشاف أخذه من أمالي ابن الحاجب ، =

= وقول القاضي : واستثناء اعتراضها دون لا يناسب النهي . هذا التعليل هو المذكور في الكشف وعبارته لا بقوله إني فاعل لأنه لو قال إني فاعل كذا إلا أن يشاء الله كان معناه إلا أن تعترض مشيئة الله دون فعله وذلك ما لا مدخل فيه للنهي انتهى .
والحاصل أن القاضي علل إبطال تعلقه بقوله إني فاعل بأمرين :
أحدهما : أنه يؤدي إلى النهي عن أن يقول إني فاعل إن شاء الله وذلك فاسد .
والثاني : أنه يؤدي إلى أن المعنى إني فاعل إلا أن يعترض المشيئة دون الفعل .
وهذا القدر وإن كان صحيحاً في نفسه إلا أنه لا مدخل للنهي فيه فلا يلتزم معه قوله ولا تقولن لشيء فبطل تعليق الاستثناء بقوله إني فاعل ويعين تعليقه بالنهي والأول من الأمرين ذكره ابن الحاجب ولم يذكره صاحب الكشف فجمع القاضي بينهما كعادته في الجمع والإيجاز .

وفي مختصر ابن كثير : هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة وفي رواية مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فليل له - وفي رواية قال له الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنت وكان دركاً لحاجته » . وفي رواية : « ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » . وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن قصة أصحاب الكهف : « غدا أجيبكم » ، فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً ، وقوله : ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف : ٢٤] : قيل معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له « قاله أبو العالية والحسن البصري » ، وقال ابن عباس في الرجل يحلف ، له أن يستثني ولو إلى سنة ، وكان يقول ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ، ذلك ، ومعنى قول ابن عباس أنه يستثني ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الاستثناء ، حتى ولو كان بعد الحنث . قاله ابن جرير رحمه الله ونص على ذلك ، لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة ، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح ، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم . وقال عكرمة ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ : إذا غضبت .

وقال الطبراني ، عن ابن عباس في قوله ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ : أن تقول إن شاء الله . وروى الطبراني أيضاً عنه استثن إذا ذكرت ، وقال هي خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لأحد منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه ، ويحتمل في الآية وجه آخر ، =



= وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى ، لأن النسيان منشؤه من الشيطان ، كما قال فتى موسى : ﴿ **وَمَا أَسْيَاهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَ** ﴾ وذكر الله تعالى يطرد الشيطان ، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان ، فذكر الله تعالى سبب للذكر ، ولهذا قال : ﴿ **وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ** ﴾ .
وقوله : ﴿ **وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا** ﴾ أى : إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه إليه فى أن يوفقك للصواب والرشد فى ذلك .

القرآن هادٍ أو هدى

هل القرآن هادٍ أم هدى ؟

السؤال :

الجواب : جاء القرآن الكريم هادٍ للبشر ، ولكن لتمام ما فيه من منهج هو هدى أيضًا . ذلك أن القرآن هدى مطلق لكل البشر لأنه لا يتغير . والمؤمن المهتدى بالقرآن يخصصه الحق بأن يعينه على الطاعة ويضع فى قلبه كراهية الكفر والفسوق : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيِّنَاتُ الصُّلَحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًا ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وُفَاءَ لَهُ ﴾ ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَوْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ ﴿ كَلَّا سَكَتَ مَن يَقُولُ وَنَعَدُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدَدًا ﴾ ﴿ وَنَرَاهُ مَن يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ ﴿ [مريم] .

إن الحق تبارك وتعالى يهيئ للمؤمنين به المزيد من الهداية ؛ فهم موصولون بالخير فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة ؛ فلا تنال من قلبه الصعاب ولا تهز من يقينه الأحداث .

أما من يكفر بآيات الله فويل له من حصار الغرور الذى يقع فيه ؛ إنه يظن أنه قادر على إدارة حياته . . ولأنه نسى الله أنساه الله نفسه فمضى بعيداً فى تخيل قدرته على توجيه الحياة ، ويغرق فى عذاب الغرور والذلة فى الدنيا ويعود يوم القيامة فرداً محاصراً بعمله وقوله الفاسد .

إن من يُقبل على الله يستقبله الله استقبال المحبين . ومن يُعرض عن الله يمد الله له فى الغي .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالمنهج الحق : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

إن القرآن الكريم الذى نزل على الرسول الأمين محمد صلى الله عليه

وسلم . بواسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام هو نور من الحق سبحانه يهدي به من يشاء .

إذن . . القرآن هو الهدى من الله . . وآياته نور فى القلب . . ويشيع ذلك النور فى كل الحياة ؛ لذلك يكون القلب المهتدي بالإيمان مُشِعاً بالحركة الطيبة فى الدنيا فلا يفعل إلا طيباً .

لهذا نرى أن الدنيا بالهدى والتقوى . . هي دنيا سعيدة بالفعل ، وينسجم فيها الإنسان مع الكون .

والتقوى أمان للمؤمن وقدوة للضال . . بل إن الضال يستطيع أن يحيا مع المؤمنين وهو آمن على نفسه وماله وعرضه . . لأنهم ملتزمون بتكاليف الحق بعدم الإساءة إلى أحد^(١) .

(١) الهداية نوعان : هداية دلالة ، وهداية معونة ، هداية الدلالة هي للناس جميعاً ، وهداية المعونة هي للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله .
والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة ، أى : دلهم على طريق الخير وبَيَّنَهُ لهم ، فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه ، ومن جحد وعصى ، تركه الله لما اختار^(٢) .

(١) قال العلامة ابن القيم : فالهداية : هي البيان والدلالة ، ثم التوفيق والإلهام ، وهو بعد البيان والدلالة . ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل . فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق . وجعل الإيمان فى القلب وتحبيبه إليه ، وتزيينه فى قلبه ، وجعله مؤثراً له ، راضياً به ، راغباً فيه . وهى هدايتان مستقلتان ، لا يحصل الفلاح إلا بهما وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً ، وإلهاماً له ، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً . ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم . ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة .

ومن ههنا يعلم اضطراب العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة ، وبطلان قول من يقول : إذا كنا مهتدين ، فكيف نسأل الهداية ؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم . وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه ، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك . وما نعرف جملة ولا نهتدى لتفاصيله ، فأمر يفوته الحصر . ونحن محتاجون إلى الهداية التامة . فمن كملت له هذه الأمور ، كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام .

وللهداية مرتبة أخرى - وهى آخر مراتبها - وهى الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة ، وهو الصراط الموصل إليها . فمن هُدى فى هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، هُدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه . وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذى نصبه الله لعباده فى هذه الدار ، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنسوب على مَثَنٍ جهنم . وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذلك الصراط .



= فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ بِالْبَرْقِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرِّكَابِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ سَمْعِيًّا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْبُو حَبْوًا ، وَمِنْهُمْ الْمَخْدُوشُ الْمَسْلُومُ ، وَمِنْهُمْ الْمَكْرَدُسُ^(١) فِي النَّاسِ . فَلْيَنْظُرِ الْعَبْدُ سِيرَهُ عَلَى ذَلِكَ الصَّرَاطِ مِنْ سِيرِهِ عَلَى هَذَا ، خَذُو الْقُدَّةَ^(٢) بِالْقُدَّةِ جِزَاءً وَفَاقًا : ﴿ هَلْ تُخْرُوكَ إِلَّا مَا كَثُرَ تَمَلُّؤُنَا ﴾^(٣) وَلْيَنْظُرِ الشَّبَهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَعُوقُهُ عَنْ سِيرِهِ عَلَى هَذَا الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَإِنَّهَا الْكَلَالِيْبُ^(٤) الَّتِي بَجَنَّتِي ذَلِكَ الصَّرَاطُ ، تَخْطِفُهُ وَتَعُوقُهُ عَنِ الْمُرُورِ عَلَيْهِ : فَإِنْ كَثُرَتْ هُنَا وَقَوِيَتْ فَكَذَلِكَ هِيَ هُنَاكَ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْغَيْبِ ﴾ [فصلت : ٤٦] . فَسُؤَالُ الْهَدَايَةِ مُتَضَمِّنٌ لِحَصُولِ كُلِّ خَيْرٍ ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ .

بدائع التفسير [١/ ١١٦ : ١١٧] .

(١) الكردسة : الوثاق . والرجل المكردس : الذي جُمعت يداه ورجلاه وأُلْقِيَ إِلَى مَوْضِعٍ .

لسان العرب [١٩٦/٦] .

(٢) القُدَّة : ريشة الطائر والنسر والصفر ، بعد تسويتها وإعدادها لَتَرْكَبَ فِي السَّهْمِ .

الوسيط [٧٣١] .

(٣) جمع كُؤُوبٍ وَهُوَ حَدِيدَةٌ مَعْطُوفَةٌ الرَّأْسِ يُعَاقَى فِيهَا اللَّحْمُ وَتُرْسَلُ فِي النَّتُورِ .

شرح النووي على مسلم [٣٠/٢] .

الإلحاد فى بيت الله الحرام

السؤال :

ما معنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَاجِ
يُظَلِّمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ؟ [الحج : ٢٥] .

الجواب : الحق سبحانه يجعل السنة العوام تنطق بكلمات تستقى منها الفتوى أحياناً .. مثلاً يأتى لك من يقول : وفى بيت العالم وتسكروا ؟ ما معنى هذا الكلام ؟

يعنى : لو كان السُّكْر فى غير هذا المكان « بيت العالم » حلالاً مباحاً ، يصير فى بيت العالم حراماً .

وكذلك الانحراف ، لو أبيع فى غير بيت الله ، فهو فى بيت الله حرام . لماذا ؟

لأنك لا تذهب إلى بيت الله إلا طامعاً فى رحمته ، وفى الاغتسال من ذنوبك ، فهل يصح أن تأتى فى زيارة قد لا تكون إلا فى العمر مرة ، ثم ترتكب معصية .

لقد أبيع الاختلاط فى « بيت الله » ، لأن كل إنسان مشغول بنفسه ، وقد تطوف وخلفك سيدة لا تشعر بها ، وقد تمر أمامك ولا تتبين شكلها .

إذن .. فإباحة الاختلاط فى هذا المكان الذى يذهب إليه الإنسان فى العمر مرة ليغتسل من ذنوبه ، ويعود مغفوراً له ، ليس معناها : أن يذهب الإنسان إلى هذا المكان ، ويفكر فى معصية ، ولو بمجرد نظرة .

وحتى لو كان الأمر ليس متعلقاً بالدين فإنه يكون « قلة حياء » .

ولكن ما معنى الإلحاد هنا ؟ إذا كان الإلحاد فى القمة ، أى : فى « الألوهية » ، فقد غير الإنسان حكم الله فى الوجدانية . استمع إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَّهْ يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .
﴿ وَمَنْ لَّهْ يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] . ﴿ وَمَنْ لَّهْ

يَحْكُمُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ [المائدة : ٤٥] . فالظالم دون الفاسق ، والفاسق دون الكافر . . . والبعض تصور خطأ أن الحكم واحد . . . والحقيقة أن الاختلاف فى الحكم يأتى باختلاف المحكوم به . فإن حكم بغير ما أنزل الله فى قضية القمة والعقيدة وأشرك ، فهذا هو الكفر بعينه . وإن حكم بغير ما أنزل الله فى كبيرة أو صغيرة ، وغيره ، فهذا هو الفسق . وإن حكم بين اثنين بالظلم ، فهذا هو الظلم .

إذن . . . فهناك اختلاف بين الألفاظ الثلاثة . . . ولماذا قلت : كفراً ، ثم فسقاً ، ثم ظلماً ؟

وهنا نقول : قسم المخالفات بدرجاتها : الضلال فى القمة يسمى كفراً ، وبعد ذلك فسق ، وبعد ذلك ظلم .

فلماذا إذن رجحت كلمة : **﴿ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾** على كلمة : **﴿ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾** و **﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾** ؟

حين تختلف النصوص والصدور متفقة تبقى الجهة منفكة . . . **﴿ وَمَنْ لَّنْ يَحْكُمُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾** فى قضية بين اثنين **﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾** . . . ولا يصح أن تأتى بالألفاظ الثلاثة مجتمعة .

وحتى تتضح هذه القضية نقول : لو تأملنا هذه الآية : **﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ ﴾** [الأنعام : ١٥١] .

والآية : **﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَاشِعُونَ ﴾** [الإسراء : ٣١] .

وهنا قد نسمع من يقول : إن هذا مجرد تفنن فى العبارة . . . تارة يقول : **﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَاشِعُونَ ﴾** ، وتارة أخرى يقول : **﴿ تَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ ﴾** .

ونقول لصاحب هذا رأى : لا ياسيدى . . . ليس الأمر كما تقول - مجرد تفنن فى العبارة - لأن الحق تبارك وتعالى قال فى الأولى : **﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾** . وقال فى الأخرى : **﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾** .

انظر إلى الصدر لترى كيف اختلف في الحالتين .. فحين قال : ﴿ وَلَا تَقْنَلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ فالمعنى : أن الإملاق وهو الفقر موجود بالفعل . وإذا كان الفقر موجوداً بالفعل ، فكل همي منصب على رزقى ، قبل اهتمامي برزق ولدي الذى سوف يولد .

فإذا كان الفقر موجوداً فكل همي وشغلى وفكرى فى رزقى أولاً .. لكن حين يقول : ﴿ حَشِيَّةٌ إِمْلَاقٍ ﴾ . فالمعنى : أن الفقر غير موجود . ونخشى حين يأتى الطفل أن يأتى معه الفقر . فالحق سبحانه يقول فى هذه الحالة : حين يأتى الطفل معه رزقه ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ . هذه قضية .

وفى قضية أخرى قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

وقال فى آية أخرى : ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] . وهنا نجد : نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه .. أما النعم فهي كثيرة : ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ لأن فى الإحصاء مظنة الإحاطة .. وهو ظلم ، لأنه غير ممكن من العبد . وبالنسبة للمنعم والمنعم عليه ، لولا أن المنعم غفور رحيم لقطع نعمه كلها عن العبد جزاء لكفره بالنعم .



الإنسان مخلوق من تراب

السؤال :

لقد وضع الله سبحانه وتعالى بأن الإنسان مخلوق من تراب وثبت بعد مرور أكثر من ألف وأربعمائة عام ذلك وهذا يوضح الإعجاز العلمي لخلق الإنسان من تراب ولكن السؤال : كيف أن الإنسان مخلوق من تراب في آية ، وفي آية أخرى أنه مخلوق من طين ، وفي آية أخرى من حمأ مسنون ؟ ما سر هذا التعدد وأوجه الاختلاف في كل آية ؟

الجواب : قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾

[الأنبياء : ٣٠] .

إن هذا القول الفصل يثبت العلم بعد مئات السنوات من نزول القرآن . فقد أثبت العلم أن الكون أصله كرة واحدة ضخمة ثم انفصلت الكواكب عن بعضها البعض . . كما أن كل شيء في هذه الحياة أساسه الماء . . بل إن الماء ضروري لا لحياة الإنسان والكائنات فقط . . بل إن الماء أساس في الجسد البشري حتى يقوم كل عضو من أعضاء الجسد بوظائفه .

وعندما يجيء القرآن الكريم ليؤكد أن الإنسان مخلوق من تراب . . فقد ثبت في العصر الحديث أن مكونات الجسم البشري هي عناصر الأرض نفسها . . ويقول الحق تبارك وتعالى . . ليذكر البشرية والعقل البشري الذي قد تتباه الشكوك في البعث مرة أخرى بعد الموت : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ وَيُقرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدِّ إِلَىٰ أَزْوَاجٍ مُّشْبَهَاتٍ لِّعَمَلِهِ لَقِيلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَلْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

إن الحق تبارك وتعالى يوضح بالآية الكريمة ما ينفي الشك عن العقل

الإنساني هذا الشك الذى قد يصيب بعض العقول من أن البعث آت لا ريب فيه . . فيقول الحق إن الإنسان مخلوق من تراب . . وهذا أصله . . ثم جعل الله للإنسان قدرة على التزاوج . . فيأتى من صلب الرجل حيوان منوى . . ويتم التزاوج مع البويضة ، ثم تصير البويضة والحيوان المنوي مضغة من دم متجمدة ثم تتحول إلى قطعة من اللحم التى تحمل ملامح إنسان . . وقد تنزف المرأة الجنين قبل تمام نموه ، وقد يتم الجنين ويخرج إلى الحياة . . هذا أمر متعلق بإرادة الله .

وبعد ذلك يصل الإنسان إلى الحياة طفلاً ، ويبلغ برعاية الأم ولبنها إلى درجة من النضج ويتيح له الترابط الأسرى درجة من النمو فى المجتمع ويبلغ الطفل الرشد . . وخلال رحلة العمر قد يموت الإنسان طفلاً أو شاباً أو يبلغ الكبر حتى ينسى كل ما تعلمه فى الحياة . . ولنا أن نعرف أن العلم قد أثبت أن الذاكرة لا تضمحل إلا فى قليل نادر من حالات المرض العقلى أو فى الشيخوخة الشديدة ، فإن الإنسان ينسى فى هذه الشيخوخة الشديدة كل ما تعلمه وعرفه . . وهذه قدرة الحق تبارك وتعالى . . تلك القدرة التى تتجلى فى أن البعث أمر فى مشيئة الله . . تلك المشيئة التى تتجلى فى نزول الماء على الأرض القاحلة فتدب فيها الحياة ، وينتفخ طينها بالماء ، وتخرج أصناف النباتات ، تلك النباتات التى تمتلك أيضاً قدرة على التزاوج لتعطي الثمار التى يتهيج بها الإنسان .

وعن مرحلة الإنسان كسلالة من طين نجد الآيات الواضحة التى تصف لنا هذا الغيب الذى لم نشهده ولكننا نحس صدقه فى حياتنا . . ويتأكد لنا عند رؤيتنا للموت . . يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون] .

إن الدعوة موجهة من قبل الحق تبارك وتعالى لعباده ليتأملوا كيفية الخلق . إن عناصر الإنسان هي عناصر الطين نفسها الذى خلق منه آدم ،

ومن سلالته كان البشر .. كل إنسان أصله نقطة من حيوان منوي وبويضة يتحدان معاً في الرحم .. هذا المكان الحصين الأمين الذي تم خلقه بين عظام حوض المرأة ليكون مكاناً صالحاً لحمل الإنسان تسعة أشهر .. فمن نقطة إلى علقه أي بويضة مخصبة بالحيوان المنوي إلى مضغة من دم .. ومن هذه المضغة يتم خلق العظام ، ومن ذلك يتم خلق اللحم البشري بالنمو داخل الرحم ثم ينفخ فيه الله الروح ، ثم يخرج إلى الحياة إنساناً جميل الطلعة .. حسن الاستقبال .. وبعد الحياة هناك الموت ثم البعث للحساب في يوم القيامة .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي خَلِّقُ نَسْرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ ١٦ ﴾ [الحجر] .

هكذا يشرح الله لنا أطوار الحياة : من ماء .. من تراب .. من طين .. من صلصال .. من حمأ مسنون . والحمأ المسنون هو الطين المتغير ، ثم ينفخ الله الروح بأمره فيكون الكائن بشراً .



شرع الله عاصم من الهوى

الإسلام جاء ليعصمنا من الأهواء فما فائدة ما يفعله العبد إن كان أمر الله نافذاً ؟

السؤال :

الجواب : الراسخون فى العلم يقابلهم من تلويهم الأهواء ، والأهواء تلوي إلى مرادات النفس وإلى ابتغاءات غير الحق . وما دامت ابتغاءات غير الحق ، فغير الحق هو الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل يحاول أن يأتى بشيء يتفق مع هواه . ولذلك جاء التشريع من الله ليعصم الناس من الأهواء ؛ لأن هوى إنسان ما قد يناقض هوى إنسان آخر ، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَلَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْصِتُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

إذن . . فلا بد أن نتبع فى حركتنا ما لا هوى له إلا الحق ، والدين إنما جاء ليعصمنا من الأهواء ؛ فالأهواء هي التى تميلنا ، والتى يدل على أن الأهواء هي التى تميل إلى غير الحق أن صاحب الهوى يهوى حكماً فى شيء ، ثم تأتى ظروف أخرى تجعله يهوى حكماً مقابلاً ، إنه يلوي المسألة على حسب هواه ، وإلا فما الذى ألجأ دنيا الناس إلى أن يخرجوا من قانون السماء الأول الذى حكم الأرض عند آدم عليه السلام ؟

لقد خرجوا من قانون السماء حينما قام قوم بأمر الدين فأخذوا لهم من هذا سلطة زمنية ، وأصبحوا يخضعون المسائل لأهوائهم . وحتى إذا نظرنا إلى تاريخ القانون فى العالم لوجدنا أن أصل الحكم فى القضايا إنما هو لرجال الدين والكهنة والقائمين على أمر المعابد . كان الحكم كله لهم ، لأن هؤلاء كانوا هم المتكلمين بمنهج الله .

ولماذا لم يستمر هذا الأمر ، وجاءت القوانين الرومانية والإنجليزية

والفرنسية وغيرها ؟ لأنهم جربوا على القائمين بأمر الدين أنهم خرجوا عن نطاق التوجيه السماوي إلى خدمة أهوائهم ، فلاحظ الناس أن هؤلاء الكهنة يحكمون فى قضية بحكم ما يختلف عن حكم آخر فى قضية مشابهة . إنهم القضاة أنفسهم والقضايا متشابهة متماثلة ، لكن حكم الهوى يختلف من قضية إلى أخرى ، بل وقد يتناقض مع الحكم الأول ، فقال الناس عن هؤلاء الكهنة :

لقد خرجوا عن منطق الدين واتبعوا أهواءهم ، ليثبتوا لهم سلطة زمنية ، فنحن لم نعد نأمنهم على ذلك . وخرج التقنين والحكم من يد الكهنة ورجال الدين إلى غيرهم من رجال التقنين . لقد كان أمر القضاء بين الكهنة ورجال الدين ؛ لأن الناس افترضت فيهم أنهم يأخذون الأحكام من منهج الله ، فلما تبين للناس أن الكهنة ورجال الدين لا يأخذون الحكم من منهج الله ، ولكن من الهوى البشرى ، عند ذلك أخذ الناس زمام التقنين لأنفسهم بما يضمن لهم عدالة ما حتى ولو كانت قاصرة .

وبمناسبة كلمة الهوى نجد أن هناك ثلاثة ألفاظ :

أولاً : الهواء وهو ما بين السماء والأرض ، ويراد به الريح وهو الذى يحرك الأشياء ويميلها وجمعه : الأهوية وهذا أمر حسى .
ثانياً : الهوى : وهو ميل النفس ، وجمعه : الأهواء ، وهو مأخوذ من هَوَى يَهْوَى بمعنى مال .

ثالثاً : الهوى : بفتح الهاء وضمها وتشديد الياء وهو السقوط مأخوذ من هَوَى يَهْوَى : بمعنى سقط . وهذا يدل على أن الذى يتبع هواه لابد أن يسقط ، والاشتقاقات اللغوية تعطى هذه المعانى . إنها متلاقية .

إذن . . الراسخون فى العلم يقفون ثابتين عند منهج الله . وأما الذين يتبعون أهواءهم فهم يميلون على حسب ميل الريح . فإذا الريح مالت : مالوا حيث تميل .

ويقول الراسخون فى العلم فى نهاية علمهم : آمنا ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَآمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

وهنا تلتقي المسألة ، فنحن نعرف أن المحكم نزل للعمل به ، والمتشابه نزل للإيمان به لحكمة يريد بها الله سبحانه وتعالى ، وهي أن نأخذ الأمر من الأمر لا لحكمة الأمر . وعندما نأخذ الأوامر من الحق فلا نسأل عن علتها ؛ لأننا نأخذها عن خالق محب حكيم عادل . والإنسان إن لم ينفذ الأمر القادم من الله إلا إذا علم علته وحكمته فإننا نقول لهذا الإنسان : أنت لا تؤمن بالله ولكنك تؤمن بالعلة والحكمة ، والمؤمن الحق هو من يؤمن بالأمر وإن لم يفهم .

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] . المحكم من عند ربنا والمتشابه من عند ربنا .



مثل نور الله

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نرجو توضيح ذلك ؟

السؤال :

الجواب : الله سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً لنوره ، هذا النور الإلهي الذي يضيء الدنيا والآخرة ، فيضيء القلوب المؤمنة ، إنه يريد أن يضرب لنا مثلاً لهذا النور بشيء مادي محس ، فيقول جل جلاله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ أَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

والمشكاة هي التجويف غير النافذ في الحائط ونحن نضع المصباح في هذا التجويف ، إذن . . فالمصباح ليس في الحجرة كلها ، ولكن نوره مركز في التجويف فيكون قويا في هذا الحيز الضيق ، ولكن المصباح في زجاجة ، تحفظه من الهواء من كل جانب ، فيكون الضوء أقوى ، صافياً لا دخان فيه ، كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه ، والزجاجة غير عادية ولكنها : ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ أي : هي مضيئة بذاتها وكأنها كوكب ، ووقودها ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ يملؤها النور ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي : يملؤها النور من الوسط ويخرج صافياً ، والزيت مضيء بذاته من دون أن تَمَسَّهُ النار ، فهي : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ ، أيكون جزء من هذه المشكاة ذات المساحة الصغيرة مظلماً ؟ ، أم تكون كلها مليئة بالنور القوي ؟

وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى فهو سبحانه منزّه عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثل فقط للتقريب إلى الأذهان ، فكأن نور الله يضيء كل ركن وكل بقعة . ولا يترك مكاناً مظلماً ، فهو كما قال تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ .

قديمًا أراد أحد الشعراء أن يمدح الخليفة وكانت العادة أن يشبه الخليفة ، بالأشخاص البارزين ذوي الصفات الحسنة ، فقال :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس
وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات فعمرو كان مشهورًا بالإقدام والشجاعة ، وحاتم كان مشهورًا بالسماحة وأحنف يضرب به المثل فى الحلم ، وإياس شعلة فى الذكاء ، وهنا قام أحد الحاضرين وقال : الأمير أعظم من كل واحد ممن شبهته بهم ، فقال أبو تمام على الفور :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والتبراس
فأعجب أحمد بن المعتصم والحاضرون من ذكائه وأمر بأن تضاعف جائزته .

والله سبحانه وتعالى يضرب لنا المثل بما سيشهده المؤمنون فى الجنة ، فيقول جل جلاله : ﴿ نَلَّ الْجَنَّةَ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ [محمد : ١٥] .
هذه ليست الجنة ، ولكن هذا مثل يقرب الله سبحانه وتعالى لنا به الصورة بأشياء موجودة فى حياتنا ، لأنه لا يمكن لعقول البشر أن تستوعب أكثر من هذا ، والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر^(١) ومن هنا فإنه لا توجد أسماء فى الحياة تعبر حقيقة عما فى الجنة .

واقراً قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] .

فإذا كانت النفس لا تعلم ، فلا توجد ألفاظ تعبر عما يوجد فى الجنة ، والتمثيل متى شاع استعماله بين الناس سمي مثلاً ، فأنت إذا رأيت شخصاً مغترا بقوته .. وتريد أن تفهمه أنك أقوى منه تقول له :

(١) جزء من حديث رواه البخارى [٣٢٤٤] ، ومسلم [٢/٢٨٢٤] عن أبى هريرة .

إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارًا .

ولا توجد ريح ولا إعصار فيما يحدث بينكما ، وإنما المراد المعنى بدون التقيد بمدلول الألفاظ .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا صورة عما في داخل قلوب المنافقين من اضطراب وذبذبة وتردد في استقبال منهج الله .



معنى : الغرور

ما الغرور ؟

السؤال :

الجواب : هناك « غُرور » - بضم الغين - ، و « غُرور » - بفتح الغين - والغُرور - بضم الغين - هو الشيء يُصور لك على أنه حقيقة وهو فى الواقع وهم . والغُرور - بفتح الغين - هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالغرور - بفتح الغين - هو الشيطان^(١) ؛ لأنه يزيّن للإنسان الأمر الوهمي ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب ؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْلَظُ كَرَامٍ يَقِيعَةً يَحْسِبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور : ٣٩] . وكذلك الغُرور ، حيث يزيّن الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه سيستمتع به ، فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق سبحانه أعمال الكفار فيقول عنها : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْلَظُ كَرَامٍ يَقِيعَةً يَحْسِبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] .

ويفاجأ الكافر بوجود الله تعالى - الذى كان كافراً به - ويصير أمام نكبتين :

الأولى : أنه كان ذاهباً إلى ماء فلم يجده فيخيب أمله .

الثانية : أن يجد الله الذى يحاسبه على الإنكار والكفر .



(١) وهو قول مجاهد رضى الله تعالى عنه كما فى تفسير القرطبي [١٤ - سورة لقمان - آية :

[٣٣] ، وكذا قال ابن السكيت وابن أبى حاتم كما عند القرطبي فى تفسير سورة فاطر آية

[٥] وهو قول كثير من السلف كما فى تفسير ابن جرير الطبرى .

نزول القرآن مُفَرَّقًا

ورد أن القرآن الكريم نزل مُفَرَّقًا ؛ فلماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ؟

السؤال :

الجواب : تساءل الكافرون : لماذا لم ينزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، أى : لماذا لم ينزل مرة واحدة ؟
فيقول الله سبحانه وتعالى ردا عليهم : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢] .

أى : كذلك أنزلناه على الأمر الذى تنتقدونه ؛ وأنه نزل نجوماً ومفارقاً لنثبت به فؤادك يا محمد . لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرض لعناد ومواقف محرجة وتكذيب وسخرية واستهزاء ، فكان فى كل حالة من هذه الحالات يحتاج إلى تثبيت ، فكلما حدث معه شيء أهمه وأحزنه نزل عليه الوحي فأزال ما به من ضيق وألم . لكن لو نزل القرآن جملة واحدة لكان التثبيت حدث فى هذه المرة فقط ، ولكن استدامة الصلة بمن بعثه وأرسله وهو الحق سبحانه فيه دعم وتثبيت مستمر لعزيمته صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَرَتَّلْنَاهُ ﴾ أى : أنزلناه على أجزاء وذلك حتى يسهل حفظه على الصحابة والمسلمين . لأنهم كانوا لا يحفظون آية إلا إذا عملوا بها ، فنزل القرآن مفارقاً يسهل عليهم هذه المهمة حفظاً وعملاً . وأيضاً القرآن نزل ليثبت إلى أن تقوم الساعة ، فالنسخ الذى كان بين الكتب السابقة وبين بعضها يكون فى عصر القرآن نفسه ، فتأتى آية لتنسخ آية سابقة . لأن آيات القرآن كما قلنا إما عقائد وإما أحكام^(١) .

(١) آيات القرآن وبشيء من التفصيل نقول : إنها شملت خمسة علوم هى :

١ - علم الأحكام : من الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام من قسم العبادات =

العقائد لا هوادة فيها ولا تريث ، فلا توجد مرحليات فى العقائد .

إنما الأمور التى تتعلق بعادة الناس فى الفعل وعادة الناس فى الحركة ، وعادة الناس فى إلف العادة ، هذه لا ينفع معها قسرية الأحكام مثل العقائد ، ولكنها تحتاج إلى موالاة وتلطف ، وهذا ما عناه قول الحق سبحانه : ﴿ وَقرءَ أَنَا فرَقَنَّهُ لِنَقْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّثٍ وَرَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

فكلمة ﴿ مَكِّثٍ ﴾ تعنى : تمهل ، أى : أنزلناه رتلاً رتلاً ، وآية وراء آية . وذلك للرد على الكافرين حينما قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان : ٣٢] .

فرد الحق سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَزَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ .

أى : أنزلناه كذلك كما هو عليه منجماً حسب الأحداث ، لنثبت به فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم وفيما يتعلق بالمؤمنين رتلناه ترتيلاً أى أنزلناه مجزئاً حتى يسهل عليهم حفظه والعمل به .

وبعد ذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَالْحَسَنِ تَفْسِيراً ﴾ [الفرقان : ٣٣] .

ولا يأتونك بشيء عجيب يستدركون به عليك إلا جئناك بالحق .

وإذا كان الكفار طلبوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، فلو حدث ما

= أو من قسم المعاملات أو من تدبير المنزل أو من السياسة المدنية ، وتفصيل هذا العلم منوط بذمة الفقيه .

٢ - علم المخاصمة والرد على الفرق الضالة الأربعة : من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين ، وتبيان هذا العلم منوط بذمة المتكلم أو عالم العقيدة .

٣ - علم التذكير بالآلاء الله : من بيان خلق السموات والأرض وإلهام العباد ما ينبغى لهم ومن بيان صفات الله سبحانه الكاملة .

٤ - علم التذكير بأيام الله : يعنى بيان الوقائع التى أوجدها الله سبحانه وتعالى من جنس تنعيم المطيعين وتكذيب المجرمين .

٥ - علم التذكير بالموت وما بعده : من الحشر والنشر والحساب والميزان والجنة والنار وحفظ تفاصيل العلوم الثلاثة الأخيرة وإلحاق الأحاديث والآثار المناسبة لها وظيفه المُذكر والواعظ . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ تَأْتَرُطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

أرادوا ثم حدث منهم اعتراض أو استدراك على شيء من القرآن فكيف يكون الرد ؟

إذن . . فكان لابد من نزول القرآن منجمًا حسب الوقائع والأحداث حتى إذا طعنوا في شيء أو طلبوا مطلبًا من الرسول صلى الله عليه وسلم أو سألوه سؤالاً ينزل القرآن ليرد عليهم ويكشف مزاعمهم وافتراءهم .



شفاء الطبيب

السؤال : هل الطبيب يشفى ؟ وهل يتعارض ذلك مع قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ؟

الجواب : القضية محسومة لله وحده سبحانه وتعالى . وجاء الضمير أيضًا فى قول إبراهيم عليه السلام عندما قال : ﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٩] . جاء بلفظ ﴿ هُوَ ﴾ هنا أيضًا لأن هناك عملاً للإنسان فى نفسه مثل استخراج الطعام . وإيصال الماء إلى الناس .

ثم قال جل جلاله : ﴿ وَإِنَّا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٨٠] وجاء بالضمير هنا كذلك حتى لا يدعى أحد أن الطبيب يشفى . والحقيقة غير ذلك تمامًا . فالطبيب يعالج . وإنما الذى يشفى هو الله سبحانه وتعالى . بل قد يكون الطبيب سببًا من أسباب قرب الأجل أو أسباب الموت . فلربما أعطى المريض دواءً خطأ . أو يحقنه بما يعتقد أنه سيشفيه . فيكون السبب فى موته ، ولذلك أكدها الله تعالى بضمير الفصل . . لأنه كما قلنا يأتى للتأكيد فقال : ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ^(١) .

ولكن عندما جاء إلى الموت والحياة . لم تكن هناك حاجة لاستعمال ضمير التأكيد فقال : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : ٨١] لماذا ؟ لأن الموت والحياة لله وحده لا يستطيع أحد أن يدعيهما .

(١) روى أحمد فى المسند [١٠٨/٦] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت يدي على صدره فقلت : أذهب البأس رب الناس أنت الطبيب وأنت الشافى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الحقني بالرفيق الأعلى . وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط البخارى .

اختلاف الألسنة والألوان

ما دلالة اختلاف السنة البشر والوانهم ؟

السؤال :

الجواب : يقول تعالى : ﴿ وَأَخْلَفَ أَلْسِنَكُمْ وَأَلْوَنَكُمْ ﴾ [الروم : ٢٢] .

هذا الاختلاف فى الألوان والألسنة والأشياء المتعددة يدل على أنها ليست من إنتاج مصنع يصنع قالباً ثم يشكل عليه ، لا ؛ فكل إنسان يولد يصنع بيد قديرة قدرة ذاتية .

إن الصانع الآن إذا أردت أن يصنع لك كوباً يصنع قالباً ويكرره ، لكن فى الخلق البشري كل واحد له قالبه الخاص ، وكل واحد بشكله المخصوص ، وكل واحد بصوته الذى ثبت أن له بصمة كبصمة اليد ، وكل واحد بلون .

إذن .. فهى من الآيات ، وهذا دليل على طلاقة قدرة الله تبارك وتعالى ، وفوق كل هذا هو الخلق الذى لا يحتاج إلى عملية علاج ، معنى عملية علاج أى : يجعل قالباً واحداً ليصب فيه مادته . لا ، هو جل شأنه : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا بِقَوْلِهِ لَكُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧] .

إن الأب والأم قد يتحدان فى اللون ولكن الابن قد ينشأ بلون مختلف ، ويخلق الله معظم الناس خلقاً سوياً ، ويخلق قلة من الناس خلقاً غير سوى ؛ فقد يولد طفل أعمى ، أو مصاب بعاهة ما ، أو بأصبع زائدة أو إصبعين ، وهذا الشذوذ أراده الله فى الخلق ليلفتنا الحق إلى حسن وجمال خلقه . لأن من يرى إنساناً آخر معوقاً عن الحركة فإنه يحمد الله على كمال خلقه^(١) .

(١) روى ابن أبى شيبة فى المصنف [٢٩٧٣٦/٩٣/٦] عن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله تعالى عنهما قال : ما من رجل يرى مبتلى فيقول الحمد لله الذى عافاني مما ابتلاك به ، وفضلني عليك ، وعلى كثير من خلقه تفضيلاً إلا عافاه الله من ذلك البلاء كائناً ما كان .

وحين يرى إنساناً له فى كل يد خمس أصابع إنساناً آخر له إصبع زائدة تعوق حركة يده ، يغرف حكمة وجود الأصابع الخمس ، فالجمال لا يثبت إلا بوجود القبح ، وبضدها تتمايز الأشياء ، الإنسان الذى له سبع أصابع فى يد واحدة ، يضع الطب أمام مهمة يجند نفسه لها ؛ حتى يستطيع الطبيب أن يستأصل الزائد عن حاجة الإنسان الطبيعى . ولو خلق الله الإنسان بثلاث أصابع مثلاً لما استطاع ذلك الإنسان أن يتحكم فى استعمال الأشياء الدقيقة .

إن الإنسان العادى فى حركته اليومية لا يدرك جمال استواء خلقه إلا إذا رأى فرداً من أفراد الشذوذ . والحق يلفت الناس الساهين عن نعم الله عليهم لرتابتها فيهم بفقدائها فى غيرهم . فساعة يرى مبصراً مكفوفاً يسير بعكاز ، يفتن إلى نعمة البصر التى وهبها له الله فيشعر بنعمة الله عليه .

إن الشذوذ فى الخلق هو نماذج إيضاحية تلفت الناس إلى نعم الله التى أنعم الله عليهم بها .

هذه المثل فى الكون تلفت الناس إلى نعم الله فيهم ، ولذلك تجدها أمامك ، وأيضاً كيلا تستدرك على خالفك ، ولا تقل ما ذنب هذا الإنسان أن يكون مخلوقاً هكذا ؟ فهو سبحانه سيعوضه فى ناحية أخرى ؛ فقد يعطيه عبقرية تفوق إمكانات المبصر .

ونضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - عن الذى ساح فى الدنيا « تيمور لنك الأعرج » وهو القائد الذى أذهل الدنيا بشجاعته ، إن الله قد أعطاه موهبة التخطيط والقتال تعويضاً له عن العرج . ونحن نجد العبقريات تتفجر فى الشواذ غالباً ، لماذا ؟ لأن الله يجعل للعاجز عجزاً معيناً : همة تحاول أن تعوض ما افتقده فى شىء آخر ، فيأتى النبوغ .

إذن . . ف : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٦]
وكل تصوير له حكمة . وما دام كل تصوير له حكمة فكل خلق الله جميل .

عليك ألا تأخذ الخلق مفصلاً عن حكمة خالقه ، بل خذ كل خلق مع حكمته . إن الذى يجعلك تقول : هذا قبيح ، أنك تفصل المخلوق عن حكمته ، ومثال ذلك : التلميذ الذى يرسب قد يحزن والده ، ولكن لماذا

يأخذ الرسوب بعيداً عن حكمته ؟ لقد رسب حتى يتعلم معنى الجدية في الاستذكار ، فلو نجح مع لعبه ماذا سيحدث ؟ كل أقرانه الذين عرفوا أنه لعب ونجح سيلعبون ويقولون : هذا لعب ونجح .. إذن فلا بد أن تأخذ كل عمل ومعه حكمة وجوده .

كذلك لا تأخذ العقوبة منفصلة عن الجريمة ، فكل عقوبة علينا أن نأخذها ملتصقة بجريمتها ، فساعة ترى واحداً مثلاً سيحكمون عليه بالإعدام تأخذك الرحمة به وتحزن ، هنا نقول لك : أنت فصلت إعدامه عن القتل الذي ارتكبه سابقاً ، إنما لو استحضرت جريمته لوجدته يُقتلُ عدالة وقصاصاً فقد قُتل غيره ظلماً ، فلا تبعد هذه عن هذه .

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران : ٦]
ومعنى : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : يُصَوِّرُ وهو عالم أن ما يصوره سيكون على هذه الصورة ؛ لأنه لا يوجد إله آخر يقول له : هذه لا تعجبني وسأصور صورة أخرى ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك هو : ﴿ الْفَرِيزُ ﴾ الذى لا يُغلب على أمر ، وكل ما يريده يحدث وكل أمر عنده لحكمة ، لأنه عندما يقول : ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ ﴾ قد يقول أحد من الناس : إن هناك صوراً شاذة وصوراً غير طبيعية . وهو سبحانه يقول لك : أنا : ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، وأفعليها لحكمة فلا تفصل الحدث عن حكمته ، خذ الحدث بحكمته ، وإذا أردت الحدث بحكمته تجده الجمال بعينه .



المعروف والمودة

ما الفرق بين المعروف والمودة ؟

السؤال :

الجواب : يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ١٩] وكلمة : « المعروف » أوسع دائرة من كلمة المودة ؛ فالمودة هي أنك تحسن لمن عندك ودُّ له وترتاح نفسك له ، لأنك فرح به وبوجوده ، لكن المعروف قد تبذله وأنت كاره ، وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، عندما أراد المستشرقون أن يبحثوا فى القرآن ليجدوا شيئاً يدعون به أن فى القرآن تعارضاً فيقولون : قرآنكم يقول : ﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَتَدَّبَهُمْ رُوحٌ مِنَّا وَيَدَّخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

كيف لا يواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره ، والقرآن فى آية أخرى من سورة لقمان يقول : ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثَمَرٍ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنِيبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٥] .

شئ آخر : الود يكون عن حُب ، لكن المعروف ليس ضرورياً أن يكون عن حُب ؛ فساعة يكون جوعان سأعطيه ليأكل وألبى احتياجاته المادية ، هذا هو المعروف ، إنما الودُّ هو أن أعمل لإرضاء نفسى ، وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للودِّ ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف ؛ لأنه حتى لو كان كافراً سيعطيه بالمعروف .

ألم يعاتب الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام فى ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سألّه وعرف منه أنه غير مؤمن لذلك لم يضيفه ؟ فقال له ربنا

سبحانه وتعالى : أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه ، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر ؟ فماذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ جرى فلحق بالرجل ، وناداه فقال له الرجل : ما الذى جعلك تتغير هذا التغير المفاجئ ؟ فقال له إبراهيم : « واللّه إن ربي عاتبني لأننى صنعت معك هذا » . فقال له الرجل : أربك عاتبك - وأنت رسوله - فيّ وأنا كافر به ؟ فنعم الرب ربّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، وأسلم الرجل لله رب العالمين .

هذا هو المعروف ، والحق سبحانه يأمرنا أن ننتبه إلى هذه المسائل فى أثناء الحياة الزوجية ، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعاً كيلا يُخربوا البيوت ، إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب فى البيت لخرب البيت ، نقول لهم : لا ، بل ﴿ وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ حتى لو لم تحبوهن ، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائذك ، يا هذا أنت لم تفهم عن الله ؛ ليس المفترض فى المرأة أن تثير غرائذك ، ولكن المفترض فى المرأة أن تكون مصرفاً ، إن هاجت غريزتك كيماويا بطبيعتها وجدت لها مصرفاً ، فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذى معها » ^(١) .



(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير عن عمر رضى الله تعالى عنه وضعفه الألبانى [٤٩٦] . وفى صحيح الجامع [٥٥٢] ما يفتى عنه فى المعنى : فعن جابر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأى أحدكم امرأة التى تعجبه فليرجع أهله حتى يقع بهم فإن ذلك معهم » .

القرآن .. والعلم

السؤال :

هل هناك تصادم بين قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ وبين العلم الحديث ، حيث يمكن الآن معرفة ما فى الرحم من ذكر أو أنثى ؟

الجواب : ﴿ مَا ﴾ عامة فى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

كذلك مثلاً قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ يأتى إنسان ليقول إن معنى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ أن الله يعلم هل الطفل الذى فى بطن أمه ذكر أو أنثى ، فإذا جاء فى نشاط العلم أنهم يستطيعون بطريقة ما أن يعرفوا قبل ولادة المولود بفترة إذا كان ذكراً أو أنثى ، يقول بعض الناس إن ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ قد خرجت عن المغيبات الخمس التى اختص الله سبحانه وتعالى بها علمه ، وتحدى بها البشر أجمعين^(١) ، ويبدأ هنا الجدل .

ولكن السؤال الذى كان يجب أن يوجه إلى قائل هذا الكلام هو : من الذى أخبرك أن معرفة نوع الجنين إذا كان ذكراً أو أنثى هو معنى الآية الكريمة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ من الذى حصر كلمة : ﴿ مَا ﴾ فى ذكر أو أنثى ؟ وهى مطلقة على العموم ، إنك ادعيت أن : ﴿ مَا ﴾ هى ذكر أو أنثى ، وقلت : إنها الحقيقة القرآنية ، نقول لك إن مدلول : ﴿ مَا ﴾ أكثر من ذلك كثيراً ، ذكر أو أنثى حقيقة ، وطويل أو قصير حقيقة أخرى ، وأسمر أو أبيض أو أشقر حقيقة ثالثة ، وسعيد أو شقي حقيقة رابعة ، وذكي أو غبي حقيقة خامسة ، وكم سيبقى فى الحياة ؟ وما عمره ؟ حقيقة سادسة ، وفى أي بقعة من الأرض سيموت ؟ حقيقة سابعة ؟ وأستطيع أن أمضي إلى

(١) المغيبات الخمس هي التى فى غيب الله والتى ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْفَلَكَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ٥١ ﴾ [لقمان : ٥١] .

مئات ، بل وألوف الحقائق التي عبر الله سبحانه وتعالى عنها بكلمة : ﴿ مَا ﴾ في الآية الكريمة : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ .

إذن . . فالتصادم لا يحدث بين حقائق الكون والقرآن وإذا كان هناك تصادم ، فإنه يوجد عندما ندعي حقيقة علمية في الكون ، وهي ليست حقيقة علمية ، أو ندعي حقيقة قرآنية وهي ليست حقيقة قرآنية . لا يمكن أن يتصادم القرآن أبدًا بحقيقة علمية ثبتت بالتجربة ، لأن قائل القرآن هو الله والفاعل هو الله .



مقدار اليوم

السؤال :

ما مقدار اليوم عند الله عز وجل ؟

الجواب : فرق بين أن نقول : أنا صنعت هذا القرص من الجبن في ست ساعات ، ولكنك جئت بالأدوات : اللبن والخميرة ووضعتهما في لحظة ثم تركته لتفاعله الكونى .

إذن . . فكأن الحق لم يباشر الخلق فى هذه المدة وإنما أودع فى كل شىء خصائصه وتركه يتفاعل بفعل الزمن كما يخلق الجنين فى بطن أمه فى تسعة أشهر ، أودع الخصائص الخاصة فى الجو المناسب ، وبعد ذلك أخذت تتفاعل . وعلى ذلك فالله تعالى لم يخلقنا فى تسعة أشهر إنما خلقنا ب : ﴿ كُنْ ﴾ فكأن الحق حينما قال : خلق السموات والأرض فى ستة أيام ليس معنى ذلك أن الستة أيام الظرف كله علاج للحدث ؛ لأن معنى أن يكون الظرف علاجاً للحدث أن كل جزئية من الحدث تقابل جزئية من الزمان ، وهذا هو العلاج والله يخلقها بدون علاج ، الله يخلقها ب : ﴿ كُنْ ﴾ فكأن عناصر السماء أو عناصر الأرض الله يضع فيها الأشياء أو الأسرار الفعالة ، فيها ثم يتركها تأخذ تفاعلها وكذلك حينما يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ يعنى كل يوم ١٢ ساعة ؟ كل نهار ؟ إنه فى شأن دائماً قيوم ، لا يمكن أن يترك خلقه بلا قيومية لحظة واحدة ، ولذلك لما سئل العلماء هذا السؤال ؟ ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ . ما شأن ذلك الآن ، وقد صح أن القلم قد جف ؟ كل شىء انتهى ؟ قالوا : أمور يبيدها ولا يبتديها . . فرق بين الإبداء والابتداء . . الابتداء معالجه خلقه . أما الإبداء فهو الظهور ، وإذا جئنا بعد ما تقدم العلم ، وعرفنا مثلاً الفلكيات ، وعرفنا وضع الأرض مع المجموعة الشمسية ، وعرفنا حقيقة دورانها حول نفسها وحول كذا ، وحول كذا ؛ لعلمنا أن كلمة يوم بالنسبة للحق كل لحظة ؛

لماذا ؟ لأنه إذا كان اليوم فى تحديدكم الفرق بين طلوع الشمس وغروبها ، فالشمس دائماً طالعة غاربة ، إذن ففى كل لحظة ينتهى يوم ويبدأ يوم وينتهى يوم .

إذن . . عندما يقول : ﴿ **كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ والمراد بيوم الآن . يعنى كل يوم هو فى شأن . لماذا ؟ لأننى أفرض مثلاً أن هذا اليوم يبتدىء من الخامسة صباحاً إلى الخامسة مساء ، خامسة ودقيقة يبتدىء يوم ثان ، وينتهى خامسة ودقيقة وقسم الدقيقة إلى ثوان وهكذا ، إذن فكلمة يوم مدلولها موجود فى كل لحظة فحين يقول : ﴿ **كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ يعنى كل آن قيومته دائمة .

لا ينتهى الأذان لله ولا ثانية من الحياة ، كل لفظ فى الأذان لا ينتهى وكل فعل فى العبادات لا ينتهى ، يعنى يقول المؤذن فى مكان « الله أكبر » للفجر ، يكون هناك مؤذن يقول : « الله أكبر » الثانية ، ومؤذن فى ذلك الوقت يقول : « أشهد ألا إله إلا الله » ومؤذن غيره يقول : « أشهد أن محمداً رسول الله » إذن فالأذان ، والعبادات موصولة دائماً لا تنقطع ، فالله مهتوف به : الله أكبر الله أكبر . فى كل لحظة من لحظات النهار والليل ، وكل عبادة من العبادات يصلى لله بها ، فحين تصلى الفجر هنا يكون أناس يصلون الظهر ، وأناس يصلون العصر ، وغيرهم يصلون المغرب ، وآخرون يصلون العشاء فى أماكن أخرى .

ولذلك بعض العارفين يقول : يا زمن وفيك كل الزمن . . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ [الفاتحة : ٤] أليس هو مالك الأمور أيضاً غير يوم الدين ؟ قال ولكن لما كان للملك وللمالك صورة ظاهرية فى كون الله . . بمعنى أننا نرى شخصاً نسميه ملكاً ، ونرى آخر ونسميه مالكاً فى ظواهر الأمور . إذن فالأمور إن كان لها ظاهر وباطن الآن ، فلبعض الناس ملك صورى ، فإن فى الآخرة لا توجد حتى هذه الصور الظاهرية ، بل الأمر كله لله . ولذلك تتخلى الأسباب عن البشر ، وما دامت تتخلى عن البشر ، فإذا كنا هنا نعيش بأسباب الله الممنوحة منه



१०० : १०० : १०० : १०० : १००

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

• یمنہ کسپا، لکھنؤ، ۱۳۱۱

မူလက နေရာတစ်နေရာမှာ နေထိုင်နေပြီး နေရာတစ်နေရာသို့ ရွှေ့ပြောင်းနေထိုင်ခြင်းကို ရွှေ့ပြောင်းနေထိုင်ခြင်း ဟု ခေါ်ဆိုသည်။

၂၀၁၁ ခုနှစ်၊ ဇူလိုင်လ ၁ ရက်နေ့၊ နံနက် ၈ နာရီ ၀၀ မိနစ်၊ ရန်ကုန်မြို့၊ ရွှေဘိုလမ်း၊ ရွှေဘိုလမ်းမ၊ ရွှေဘိုလမ်းမ

[illegible]

החלום : החלום : החלום :

مذخره و پسته و کدو و پیاز و سبزیجات و حبوبات و تخم‌های مختلف و ...

[illegible]

النفاق .. ومرضى القلوب

السؤال :

ما الفرق بين المنافق ومن فى قلبه مرض ولماذا فرق بينها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ لَيْنٌ لِّزَبْنِهِ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ ﴾ ؟ وما معنى المرجفون ؟

الجواب : قال تعالى : ﴿ لَيْنٌ لِّزَبْنِهِ الْمُتَنَفِّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ ﴾ [الأحزاب : ٦٠] .

إذن .. فهم ثلاثة أصناف لأن الواو تقتضى المغايرة . فيقال : لا ، إن الثلاثة موجودة فى جنس المنافقين وهم من فى قلوبهم مرض وهم المرجفون فى المدينة .. ولماذا أتى بالمنافقين مرة ، ثم الذين فى قلوبهم مرض ، ثم المرجفين فى المدينة ؟ فأتى بهذا وحده وهذا وحده فكان كل خصلة فيهم تكاد تستقل بذاتها ومع ذلك القرآن وصف المنافق بأن فى قلبه مرض .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَينَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ يَخْدِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝ ﴾ [البقرة] .

إذن .. ففى قلوبهم مرض فى هذه الآية جعلت عطف الواو ليس عطفاً لطائفة على طائفة والآية السابقة .

إذن .. فهذه هي تلك ولكن المغايرة فى المعنى .

والمرجف فى المدينة : ما معنى الإرجاف ؟ الإرجاف هو الهزة التى تهز الشئ وتزلزله .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجَافَةُ ۝ تَبْمُهَا الرَّادِفَةُ ۝ ﴾ [النازعات] .

إذن .. فالمرجفون هم الذين يزلزلون الشئ الثابت . فكيف يزلزلون ؟ يحاولون أن يعملوا هزة فى الكيان الإسلامى ، وكانوا قديماً يعبرون تعبيراً سياسياً يقولون « إن فلاناً طابور خامس » فما معنى هذا ؟

أى : يذيعوا أباطيل تضعف التيار المجمع على شىء ، ويشيعوا الأخبار السيئة ، فكذلك جماعة المنافقين واليهود يجلسون ويقولون : لقد اجتمعت قبائل كذا وكذا على أن يهاجموا المدينة ويمسكوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك حتى يهتز هؤلاء المسلمون الضعاف وهو كذب . هذه واحدة . ويقولون : ألم تعلم أن فلاناً ارتد والآخر أهله حبسوه وأخذوا يعذبونه . حتى إذا كان البعض يفكر فى الإسلام لا يقدم عليه . هذا هو المرجف . فالمرجف هو الذى يمشى بالفتنة ليصرف أهل الحق عن حقهم بما يشيع من بهتان وأباطيل . فهؤلاء ما جعلنا نصبر عليهم إلا العهد الذى بيننا وبينهم ونحن لا نقض العهود وفى انتظار أن ينقضوه هم . ولذلك تجد قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَثَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٩] .

فالمرضى فى قلوبهم حقاً لكنهم أیظنون أن یظل هذا خافياً عن رسول الله ؟ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ وقلنا لك : إنهم فلان وفلان وفلان ، لكننا سنجعلك تعرفهم فى لحن القول . أى : أنهم يحرفون القول عن غير معناه ؛ كما كان يفعل اليهود عليهم لعنة الله فكانوا مثلاً يعرفون أن تحية المسلمين لرسول الله السلام عليكم فيحرفون التحية قائلين : السام عليكم يا أبا القاسم والسام هو الموت ^(١) . وكانوا مثلاً فى كلمة : ﴿ رَاعِنَا ﴾ أى : انظر إلينا فهم بعد تحريفهم يقولون للمسلمين « راعونا » يريدون أن يقولوا إن هذا من الرعونة . ثم يقولون فى أنفسهم ﴿ لَوْلَا يَعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة : ٨] .

والإسلام لم يأخذ المنافقين مرة واحدة بل عمل معاهدة معهم . ولما

(١) روى البخارى [٦٠٢٤] ، مسلم [١٠/٢١٦٥] عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليكم ، قالت عائشة : ففهمتها ؛ فقلت عليكم السام واللعنة ؛ قالت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلا يا عائشة ؛ إن الله يحب الرفق فى الأمر كله فقلت يا رسول الله : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد قلت : وعليكم .

بلغ الرسول أنهم يتناجون بالإثم والعدوان فأتى بهم ونهاهم عن التناجي بالإثم والعدوان . . وبعد أن نهاهم يتناجون مرة أخرى .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ [المجادلة : ٨] .

وقول الحق سبحانه : ﴿ لَنُغْفِرَنَّكَ ﴾ ، ما الإغراء ؟ الإغراء يقابله التحذير ، فالإغراء أن تحمل المخاطب على أمر محبوب يقال : يغريه بكذا ، يغريه بأن يفعل هذه ، وإن كان التحذير : فتحذره عن شيء مكروه ؛ والنحويون يسمونه : باب الإغراء والتحذير . ولنفرض مثلاً أننا جالسون في مكان ورأى أحدهنا ثعباناً فيصيح « ثعباناً » هذا هو التحذير ، « الأسد » تحذير ، « النجدة » لكن الإغراء أن تحبب إلى المخاطب فعلاً تحب أن يسارع إليه فمعنى قوله : ﴿ لَنُغْفِرَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أن نسلطك عليهم والإغراء لأمر محبوب وسيكون هذا الأمر محبوباً لأنك رأيت من مكائدهم ما أفرعك وأقلقك . وجماعة المنافقين أغبياء ولذلك القرآن يعرضها عرضاً جميلاً ﴿ يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : ٦٤] .

فما داموا يحذرون وعرفوا أن الله ينزل كلاماً ويخافون منه فلماذا يفعلون هذا ، أليس هذا غباء !؟

وأهم من هذا : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة : ٨] لماذا لا يعذبنا الله بما نقول في أنفسنا ؟ فهم يقولون في أنفسهم فما الذي أعلم رسول الله بذلك ؟ الله هو الذي أعلمه .

إذن . . فما داموا يعرفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم موصول بربه وسيفصحهم فهل هم أغبياء أم لا ؟!

﴿ لَنُغْفِرَنَّكَ بِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٦٠] وما دمنا سنسلطك فأنتم ستصيرون إلى قوة تغري بعدوها إلى أن ينجلي عن المدينة وقد كان .

﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٠] .

فهل قليل منهم الذي يجاور أم مجاورة قليلة في زمن قليل إلى أن يرتبوا لهم مكاناً كمهجر يذهبون إليه .

وقوله : ﴿ **مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا** ﴾ [الأحزاب : ٦١] .

الملعون هو المطرود . أى : انكشفوا انكشافاً وسيطردون ولذلك طردهم رسول الله من المسجد . فقد كانوا من خبثهم يذهبون إلى الصلاة ويكونون في أول الصفوف ، فالنبي يقول يا فلان يا فلان لأن الله قال : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمِهِمْ** ﴾ [محمد : ٣٠] .

﴿ **مَلْعُونِينَ** ﴾ أى : مطرودين ﴿ **أَيْنَمَا ثُقِفُوا** ﴾ أى : أينما وجدوا لماذا ؟ لأن الذى ينافق فى بيئة ويطبع على النفاق فيها لم تعد له طبيعة خالصة . فطبيعته ملوثة مسمومة فإن ذهب إلى مكان سيفعل مثلما فعل فيطرد . ولذلك لو نظرنا إلى الذين قطعهم الله فى الأرض أممًا . وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ **وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا** ﴾ [الأعراف : ١٦٨] .

﴿ **وَقَطَعْنَاهُمْ** ﴾ ، القطعة تعنى : صحيح تفرق من مجتمع . . وقطعة كل قطعة لها تماسك والذين يذهبون فى هذه البلاد ، هم اليهود ، ولهم أماكن مخصوصة لا يختلطون بغيرهم أبدًا ولذلك عندنا كانوا يسمونها « حارة اليهود » لماذا ؟ لأنهم لا يذوبون فى أمة أبدًا ولذلك قَطَعْنَاهُمْ فى الأرض أممًا لا أفرادًا أى : كل بلدة فيها جزء مجتمعون فيه . والتقطيع فى الأرض أممًا جعل كل أمة تكتشفهم فيما بعد . كما حدث لهم فى أوروبا وغيرها .

﴿ **مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا** ﴾ أى : أينما وجدوا أخذوا أسرى ﴿ **وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا** ﴾ أى : اقتلوهم بعنف ، لأنهم عملوا فى الإسلام المصائب ، وربنا نصرهم عليهم فلا بد أن يكونوا عبرة لغيرهم ، ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول فى مثل هؤلاء : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ بِبَيْعَتِنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سَاءَ الْعَذَابِ** ﴾ [الأعراف : ١٦٧] .



ما أدراك .. وما يدريك ؟

السؤال :

ما الفرق بين : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ و ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ ﴾ ؟

الجواب : قوله : ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ ﴾ نفى أن يوجد من أدري فى الماضى ، ونفى أن يوجد من يدري فى الحال ، أو الاستقبال .. ولذلك قالوا : كل ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ ﴾ فى القرآن لم يدره ، وكل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ أدراه .

وإذا وجدت : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ يعنى : فى الماضى ، فلا مانع أن يدريك الآن ، إنما عندما يقول : ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ ﴾ فقد نفى أن يوجد من يدره فى الحال أو فى الاستقبال ؟

ولذلك لم تأت إلا فى الساعة ، أو لم تأت إلا فى التزكية الغيبية .
يقول الحق تعالى : ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٦٣]
ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : ١٧] .

الاثنان فى أمر الساعة ، لأنه قال : ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ ﴾ وليس ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ فإن نفى ما أدراك فى الماضى ، معناه : أنه لا مانع أن يوجد فى الحال من يدريك . ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ يَزَكِّي ﴾ [عبس : ٣] والتزكية على الله ، لا توجد من أحد لأحد أبداً ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : أنا لا أزكى على الله أحداً^(١) .

(١) روى البخارى [٦٠٦١] ومسلم [٦٦/٣٠٠٠] عن أبى بكره عن أبيه رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم : إنه ذكر عنده رجل فقال رجل : يا رسول الله ما من رجل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أضل منه فى كذا وكذا ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ويحك قطعت عنق صاحبك ؟ مرارا يقول ذلك ؟ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانا إن كان يرى أنه كذلك ؟ ولا أزكى على الله أحدا . واللفظ لمسلم ، وفى البخارى : « والله حسبه » .

إذن . . فالثلاثة هؤلاء وردوا فى القرآن : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٦٣] ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : ١٧] ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّيْكَ ﴾ ووردت ، ﴿ وَمَا أَذْرَكَ ﴾ ثلاث عشرة مرة فى القرآن ، تبدئ فى سورة الحاقة : ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ ﴾ [الحاقة] مثل ﴿ الْفَارِغَةُ ﴿١﴾ مَا الْفَارِغَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْفَارِغَةُ ﴿٣﴾ ﴾ [القارعة] . طبق الأصل . وهذه واحدة .

وفى سورة المدثر يقول سبحانه : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿١﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢﴾ لَا نَبِيَّ وَلَا نَذْرٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المدثر] هذه ثانية .

ثم يأتى فى سورة المرسلات : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَّتْ ﴿١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿٣﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿٤﴾ ﴾ ، ثم فى سورة الانفطار يقول : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿٢﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٣﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿٤﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥﴾ ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٦﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿٧﴾ ﴾ أعلمه أم لم يعلمه ؟ وهكذا تواترت : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ ﴾ فى آيات سورة المطففين : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَحْبَبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ وفى سورة المطففين أيضا : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلَيْكُمْ ﴾ [المطففين : ١٩] وفى سورة البلد : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ [١٢] وفى سورة الطارق : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ [٢] وفى سورة القدر : ﴿ وَمَا أَذْرَكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ٢] .

